الباب الأول

تأثير الديمقراطية فى الحركة العقلية فى الولايات المتحدة

الفصـــل الأول

منهج الأمريكيين الفلسفى

لا أعرف بلداً من بلاد العالم المتحضر يعنى بالفلسفة أقل مما تعنى به الولايات المتحدة . فليس للأمريكيين مدرسة فلسفية خاصة بهم ، ولا هم يحفلون إلا قليلاً بجميع تلك المدارس الفلسفية التى انقسمت إليها أوربا ، بل ولست أغالى إن قلت إنهم لا يعرفون حتى أسماءها[1] .

ومع ذلك فلا يشق علينا أن ندرك أن جل سكان الولايات المتحدة ، يستخدمون عقولهم بطريقة واحدة ، ويفكرون بحسب قواعد واحدة . وبعبارة اخرى أنهم ، من غير أن يجشموا أنفسهم مئونة تحديد هذه القواعد ، لهم منهج فلسفى عام يجرى عليه الشعب كله فى جملته .

فالسمات الرئيسية لذلك الذى أسميه منهج الأمريكيين الفلسفى هى : تحاشيهم أن تستعبدهم النظم ، والعادات ، وقواعد الأسرة وبديهياتها ؛ أو أن تستعبدهم آراء الطبقات ، وضروب التعصب القومى إلى حد ما ؛ وكذا عدم الأخذ بالتقاليد والعرف إلا من حيث هى وسائل لتحصيل المعارف ، ولا بالحقائق القائمة إلا من حيث هى دروس تستخدم فى تأدية ما يعملونه بطريقة أخرى ، وعلى صورة أفضل ؛ والبحث عن أسباب الأشياء لأنفسهم ، وفى أنفسهم وحدها ؛ والعناية بالنتائج من غير تقيد بالوسائل المؤدية إليها ؛ والنفاذ من الصورة إلى الجوهر : تلك هى سمات منهج الأمريكيين الفلسفى .

وإن أنا سرت إلى أبعد من هذا مدى ، وبحثت بين هذه السمات والخصائص المختلفة ، عن السمة الرئيسية فيها التى تكاد تشمل سائرها كله ، لوجدت أن كل أمريكى لا يلجأ فى معظم العمليات العقلية التى يقوم بها العقل البشرى ، إلا إلى ذلك الجهد الفردى الذى يقوم به عقله هو .

فأمريكا إذن من أقل البلاد التى تدرس فيها مبادىء ديكارت[2] . ولكنها مع ذلك

---

(١) كان هذا صحيحا فى عصر المؤلف إلى حد ما ، ولكنه لم يعد كذلك الآن فللأمريكيين مدارسهم الفلسفية التى من أبرزها البرجماتية .

(٢) رنيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) الفيلسوف الفرنسى المشهور الذى يعد أبا الفلسفة الحديثة فضلا عن عنايته بالعلم والرياضيات . ومن أشهر كتبه الفلسفية ، مقال فى المنهج (idiscours de la methode) الذى نشره سنة ١٦٣٧

من خير ما يطبقها . ولا عجب فى هذا . فالأمريكيون لايقرأون مؤلفات هذا الفيلسوف لأن أحوالهم الاجتماعية تعوقهم عن العناية بالدراسات التأملية ، وإن كانوا مع ذلك يتبعون قواعد منهجه ، لأن أحوالهم الاجتماعية هذه نفسها تجعل عقولهم ميالة بفطرتها إلى اتباع هذه القواعد والعمل بها .

ففى وسط الحركة الدائبة التى تسود كل مجتمع ديمقراطى . نجد الأواصر التى تربط كل جيل بآخر تسترخى أو تنفصم ، وعندئذ سرعان ما يفقد كل فرد فى ذلك المجتمع كل أثر لأفكار جداده . أو هو لايحرص عليها ولا يوليها أى اهتمام .

فالناس الذين يعيشون فى مثل هذه الحالة الاجتماعية لايستمدون معتقداتهم من آراء الطبقة التى ينتمون إليها ؛ ذلك لأنه لم تعد بينهم طبقات ، أو أن الطبقة التى بقيت صارت تتكون من عناصر قلقة سريعة التغير لدرجة لايستطيع معها المجموع أن يشرف على أفراده إشرافاً حقيقياً ناجعاً .

أما من حيث تأثير عقل رجل فى عقل آخر . فذلك تأثير محدود كل الحد بالضرورة فى بلاد كل مواطنيها فى مستوى واحد . حتى أن كلا منهم ليستطيع أن يرى الآخر عن كثب ، ويرجع دائماً فى كل أموره إلى عقله هو باعتباره أوضح مصدر من مصادر الهداية إلى الحقيقة وأقربها إلى نفسه ، وذلك لعدم وجود أدلة ملموسة أمامهم . لايتنازع فيها اثنان ، على عظمة واحد منهم وتفوقه على سواه . هذا . وليست الثقة بمثل هذا الرجل أو ذاك وحدها هى التى زالت بذلك فحسب ، بل زال معها كذلك الميل إلى الثقة برأى أى إنسان من غير دليل . مهما كان حجة فى موضوعه . فلا غرو إذن أن انطوى كل إنسان على نفسه ، وعزم على ألا يحكم على شىء فى هذه الدنيا إلا من وجهة نظره هو .

فعادة الأمريكيين هذه -عادة ألا يحكموا على الأمور إلا بحسب ما توحى به إليهم عقولهم وحدها- وجهت تفكيرهم إلى اعتياد عادات أخرى . فبعد أن رأوا أنهم نجحوا فى التغلب على كل مصاعبهم الصغيرة التى صادفتهم فى حياتهم العملية دون حاجة إلى الاستعانة برأى أحد ، سارعوا واستنبطوا من ذلك أن كل شىء فى هذا العالم يمكن أن يفسر ويعلل فى سهولة ويسر ، وأن ليس فيه شىء يند عن حدود الأفهام . ومن ثم وقفوا فى إنكار كل شىء لم يستطيعوا فهمه ولا تعليله مما لم يدع لهم سوى القليل من الإيمان بكل شىء خارق للعادة ، وصاروا ينفرون كل النفور من كل شىء فوق الطبيعة . وإذ اعتادوا باعترافهم أنفسهم ، ألا يعتمدوا إلا على شهادتهم فقد صاروا يميلون إلى ضرورة أن يدركوا كل ما يسترعى انتباههم ، إدراكاً واضحاً كل الوضوح ، ولذا صاروا يجردونه ما استطاعوا من كل ما يغشيه ، ومن كل ما يفصلهم عنه ويخفيه عن أبصارهم ، كى يروه عن كثب وفى رائعة النهار . وسرعان ما تؤدى بهم نزعتهم العقلية هذه إلى التنكر للأشكال والصور ، حتى صاروا يعدونها غلفا لاجدوى منها ، وأقيمت لتكون حواجز بينهم وبين الوصول الى الحقيقة .

وهكذا لم يجد الأمريكيون بهم حاجة إلى استخدام منهج فلسفى يستمدونه من الكتب، بل وجدوا هذا المنهج فى أنفسهم هم. وهذا يصدق كذلك على ما يحدث فى أوربا. فهذه الطريقة عينها لم تقم ولم تنتشر بين الأوربيين إلا كلما صارت أحوال المجتمع أكثر تعادلاً ومساواة مما كانت عليه من قبل، وصار الناس أكثر شبهاً بعضهم ببعض. فلنتأمل لحظة الصلة التى تربط الفترات التى يتسنى لنا أن نتبع فيهاآثار هذا التغير.

لم يتحرج المصلحون، الذين ظهروا فى القرن السادس عشر من أن يعرضوا بعض مبادىء الاعتقاد القديم الحتمية على الفرد، ليفحصها ثم يحكم عليها أو لها بنفسه، إنهم مع ذلك ظلوا يحرمون عليه مناقشة سائر المبادىء والمعتقدات. وفى القرن السابع عشر، ألغى بيكن[1]، فى العلوم الطبيعية، وديكارت، فى الفلسفة بمعناها المعهود، الصيغ التقليدية، وهدما سلطان الرواية والمأثور، وقوضا سلطة الفقهاء والمدارس الفلسفية. أما فلاسفة القرن الثامن عشر، فقد انتهى بهم الأمر، وهم يعملون على تعميم النتائج التى استنبطوها من المبادىء نفسها، إلى تعميم المبدأ ذاته، فأخضعوا جميع معتقدات المرء لحكمه هو الشخصى.

ومن ذا الذى لا يعرف أن لوثر[2] وديكارت وفولتير قد استخدموا هذا المنهج نفسه، وأنهم لم يختلفوا إلا من حيث المدى الذى يرون وجوب الذهاب إليه فى استخدامه فيه؟ ولمَ قصر المصلحون أنفسهم كل القصر على نطاق الآراء الدينية وحدها؟ وما الذى دعا ديكارت إلى أن يختار قصر تطبيق منهجه على أمور معينة بالذات، مع أنه جعله صالحاً لأن يصدق على كل شىء، فجعل يعلن للناس أن لهم أن يستعملوا عقولهم، ويحكموا بما يتراءى لهم فى الأمور الفلسفية؛ لا فى الأمور السياسية؟ فكيف حدث أن استنبطت جميع هذه التطبيقات العامة دفعة واحدة بالمنهج ذاته فى القرن الثامن عشر، وهى التطبيقات التى لم يدركها ديكارت ولا من سبقوه، أو رفضوا أن يستكشفوها؟ وأخيراً إلامَ نعزو خروج هذا المنهج الذى نتحدث عنه فجأة فى تلك الفترة، من المدارس، ليتغلغل فى المجتمع حتى أصبح المعيار المعترف به فى قياس صحة التفكير، وأنه بعد ذيوعه بين الفرنسيين، اعتنقته جميع الأمم الأوربية صراحة وعلنا، أو خِفْية وسرًّا.

ليكن هذا المنهج الفلسفى، الذى نشير إليه، قد نشأ فى القرن السادس عشر، وتحدد بشكل أتم، وطبق على نحو أوسع، فى القرن السابع عشر؛ ولكنه لا يمكن أن يكون قد اتبع بشكل عام، وانتشر بين الناس، فى هذا القرن وذاك، فالقوانين السياسية وأحوال المجتمع، والعادات العقلية، التى ترتبت على تلك الأحوال، كانت لاتزال كلها ضده.

---

(١) فرنسيس بيكن (١٥٦١ - ١٦٢٦) الفيلسوف الأديب الإنجليزى الذى يعد أبا الطريقة الاستقرائية فى المنطق والبحث العلمى.

(٢) مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) المصلح الدينى الشهير.

حدث استكشاف هذا المنهج فى الوقت الذى شرع فيه الناس يتساوون فى أحوالهم الاجتماعية. ولكن اتباعه لايمكن أن يكون عاماً إلا فى العصور التى تكون فيها هذه الأحوال قد أصبحت واحدة للجميع، أو تكاد تكون كذلك، وصار الناس أنفسهم متساوين أو يكادون.

فليس منهج القرن الثامن عشر الفلسفى إذن منهجاً فحسب، بل هو منهج ديمقراطى كذلك، مما يبين لنا السبب فى أن أوربا كلها قد سارعت إلى التسليم به فى يسر، فعاون كل العون على تغيير معالم المجتمع فيها. فالفرنسيون لم يهزوا العالم لأنهم كانوا أول أمة عمدت إلى إيجاد منهج فلسفى يسَّر مهاجمة كل قديم وفتح الطريق لكل جديد.

ولعل سائلاً يقول: ولم كان الفرنسيون يتبعون هذا المبدأ نفسه فى الوقت الحاضر بشكل أشد صرامة، ويطبقونه أكثر مما طبقه الأمريكيون، مع أن مبدأ المساواة ليس أقل فى أمريكا هذه منه فى فرنسا، مع أن الأمريكيين أقدم عهداً به من الفرنسيين؟ يرجع بعض هذا إلى سببين اثنين خليق بنا أن نتفهمهما حق الفهم أول كل شىء.

فيجب ألا يغرب عنا أبداً أن الدين هو الأصل فى قيام المجتمع الأمريكى الانجليزى. فالدين متصل فى الولايات المتحدة بعادات الأمة، وبجميع عواطف الوطنية مما يجعل له قوة خاصة. ولا بأس فى أن نضيف إلى هذا السبب الوجيه سبباً آخر لايقل عنه وجاهة. فقد وضع الدين فى أمريكا حدوداً لنفسه بنفسه، وظلت المؤسسات الدينية منفصلة تمام الانفصال عن المؤسسات السياسية، مما مكن للقوانين السابقة أن تتغير فى سهولة ويسر، مع بقاء المعتقدات القديمة ثابتة لاتتزعزع. فلا غرو أن احتفظ الدين المسيحى بسيطرة عظيمة على عقول الشعب فى أمريكا. وإنى لأشير هنا بوجه خاص إلى أن سيطرة هذا الدين لم تكن مجرد سيطرة مذهب من المذاهب الفلسفية سلَّم به الناس وأخذوا به بعد بحث وتمحيص، بل كانت طريقة دين آمن به الناس من غير بحث أو نقاش. فلا يخفى أن الطوائف المسيحية فى أمريكا كثيرة ومنوعة كل التنوع، وتتعدل وتتغير باستمرار، على حين أن المسيحية نفسها حقيقة مقررة لاتقاوم، فلا يعمد إلى مهاجمتها أحد، ولا يتصدى للدفاع عنها أحد. فبعد أن سلم الأمريكيون بمبادىء الدين المسيحى الأساسية من غير بحث، اضطروا إلى أن يقبلوا كذلك، وبالطريقة عينها، عدداً كبيراً من المبادىء الأخلاقية، نشأت فيه ومتصلة به. ومن ثمَّ كان نشاط الفرد فى التحليل محصوراً فى حدود ضيقة، وصارت طائفة كبيرة من أهم آراء البشر بعيدة عن نفوذه.

هذا، والسبب الثانى الذى أشرت إليه، هو أن أحوال الأمريكيين الاجتماعية ديمقراطية، وكذلك دستورهم، ولكن لم تحدث بينهم أية ثورة ديمقراطية؛ فقد وفدوا على البلاد التي يعيشون فيها الآن فى الحالة التى نجدهم عليها فى الوقت الحاضر تقريباً. ولهذا أهميته [illegible]

فمن المعلوم أنه لاتحدث ثورات من غير أن تهز معتقدات الناس القائمة [illegible]

السلطة، وتلقى الشكوك والغموض على الآراء المأثورة التى درج الناس على الأخذ بها. فكل ثورة تؤدى إلى تحلل الناس من القيود، وتتركهم وشأنهم فى أمور سلوكهم، وتفسح لعقل كل واحد منهم مكاناً واسعاً يكاد لا يحد. فإذا ما حدث وأقيمت المساواة بين الناس فى أحوالهم الاجتماعية، عقب صراع قام بين مختلف الطبقات التى كان يتكون منها المجتمع القديم، استولى الحسد والكراهية وعدم مراعاة مصالح الغير، وعدم التسامح، على نفوس الناس، وغلبت عليهم الكبرياء، والإسراف فى الثقة بالنفس، وظلت تسيطر على قلوبهم فترة من الزمن. فهذا، وبغض النظر عن المساواة نفسها، يعمل بقوة على إيجاد التفرقة بين الناس، ويؤدى بهم إلى إساءة الظنون برأى بعضهم البعض. ويدفعهم إلى البحث عن نور الحقيقة فى أنفسهم وحدها دون أى موضع آخر. وعندما يصبح كل امرىء لا يهتدى برأى غير رأيه، ويفخر بأنه إنما يكون آراءه بنفسه فى كل ما يعرض له من موضوعات، فعندئذ لا تعود الأفكار هى التى تربط الناس بعضهم ببعض، بل المصالح الشخصية؛ ويبدو الأمر كأن أفكار البشر تحولت إلى نوع من الغبار العقلى تبعثرت ذراته فى كل اتجاه، فلا هى تستطيع أن تتجمع ولا أن تتماسك.

ومن ثم ليس ذلك الاستقلال العقلى الذى تفرض المساواة وجوده، استقلالاً عظيماً أبدا، ولا هو يبدو مفرطاً إلا حينما تأخذ المساواة فى إرساء قواعدها، وفى أثناء ذلك الجهد العظيم الشاق الذى لابد منه لإقامتها. فيجدر بنا إذن أن نميز بين هذا النوع من الحرية الفكرية الذى قد يترتب على قيام المساواة، وبين الفوضى التى تستحدثها الثورة. فكل من هذين الأمرين يجب أن يدرس على حدة، حتى لا تداعبنا الآمال المفرطة ولا تفزعنا المخاوف المسرفة بشأن المستقبل[1]..

وفى رأيى أن من سيعيشون فى ظل المجتمعات الجديدة، سيكثرون من الاعتماد على أنفسهم فى حكمهم على الأشياء، ولكن لا يخطر ببالى أبداً أنهم سيسيئون استخدام هذه الحريات إساءات كثيرة. ويرجع ذلك إلى سبب ينطبق بوجه عام على البلاد الديمقراطية أكثر مما ينطبق على غيرها، ولا بد له من أن يقيد حرية الفرد فى التفكير واستقلاله به آخر الأمر، ويقصرها على دائرة ثابتة الحدود. وهى دائرة قد تكون ضيقة فى بعض الأحيان.

هذا وسأتناول هذا السبب بالشرح والتفصيل فى الفصل التالى.

(١) لاشك أن كانت أحوال فرنسا وقتئذ فى فكر المؤلف وهو يكتب هذه السطور.

الفصـــل الثـــانى

مصدر معتقدات الشعوب الديمقراطية الرئيسى

يختلف انتشار المعتقدات «الحتمية» سعة وضيقاً باختلاف العصور؛ وتنشأ هذه المعتقدات بطرق شتى. ومع أن أشكالها قد تتغير. وأغراضها قد تتبدل. فإنها لن تزول بحال من الأحوال؛ وبعبارة أخرى، لن يمتنع الناس من تقبل بعض آراء من غيرهم دون جدل أو نقاش، اعتماداً على ثقتهم بمن يأخذونها عنهم. فلو اضطلع كل إنسان بتكوين آرائه بنفسه، وبأن يبحث عن الحقيقة وحده، بطرق جديدة، يشقها لنفسه، لترتب على ذلك أن لايتحد أى عدد كبير من الناس، ويتفقوا على الاعتقاد بمبدأ واحد مشترك بينهم.

ولا يخفى أن لايتسنى لأى مجتمع أن يزدهر من غير أن يقوم فيه اعتقاد مشترك من هذا القبيل؛ بل إن شئت قلت، إنه لايتسنى لأى مجتمع أن يقوم بدونه. فمن غير آراء مشتركة تربط الناس بعضهم ببعض، لايكون ثمَّ عمل مشترك؛ ومن غير عمل مشترك سيظل الناس موجودين حقاً، ولكن دون أن تتكون منهم هيئة. فكى يوجد مجتمع ما، وبالأحرى كى يزدهر مجتمع ما، يجب أن تكون عقول المواطنين قد تجمعت وتماسكت بآراء معينة غالبة عليهم، ولا يكون هذا إلا إذا استقى كل واحد آراءه أحياناً من المنبع المشترك الذى يستقى منه سواه، ورضى أن يتقبل بعض المسائل المتعلقة بالاعتقاد بالشكل الذى سبق أن تكونت به من قبل.

فلو أنا نظرنا إلى الإنسان من حيث هو فرد منعزل عن غيره من الناس، لوجدنا أن المعتقدات «الحتمية» ليست أقل لزوماً له، كى يعيش وحده منفرداً بنفسه، عن لزومها له كى يتعاون مع أمثاله. فلو كان الإنسان مضطراً إلى أن يبرهن لنفسه على جميع الحقائق التى يستخدمها كل يوم، لما انتهى من هذا العمل أبداً، بل إنه ليستنفد طاقته فى براهين تمهيدية، من غير أن يتقدم إلى ما بعدها خطوة واحدة. ولما كان قصر عمره لايتيح له الوقت الكافى، ولا ييسر له عقله المحدود القدرة اللازمة للسير فى هذه الطريق، فقد أصبح مضطراً إلى تقبل حقائق كثيرة، وآراء عدة. لم يكن عنده الوقت الكافى، ولا القدرة اللازمة لفحصها وتحقيقها بنفسه، ولكن رجالا أسمى منه قدرة قد توصلوا إليها، أو أن الجماعة قد اختارتها واعتنقتها. فاستناداً إلى هذا الأساس الأولى يستطيع المرء أن يقيم صرح

أفكاره بنفسه. فهو لا يسلك هذا المسلك طواعية منه واختياراً، بل يكره عليه إكراهاً بحسب ما يقتضيه قانون الضرورة الصارم. فليس فى العالم فيلسوف واحد، مهما بلغت عظمته، ليضطر إلى تقبل آلاف من الأشياء على أنها صحيحة اعتماداً منه على ثقته بمن توصلوا إليها، بل إنه لمضطر كذلك إلى تقبل حقائق أكثر عدداً مما يستطيع أن يدلل هو على صحته بنفسه.

وليس هذا ضرورياً فحسب، بل هو أمر مرغوب فيه كذلك. فمن شاء أن يفحص عن كل شىء بنفسه، لم يستطع أن يخصص لكل شىء غير وقت قصير، وعناية ضئيلة. فالمهمة التى اضطلع بها تجعل عقله فى قلق دائم، يمنعه من أن يتعمق أية حقيقة، أو يستمسك كل الاستمساك بعقيدة ما. وبذلك يصبح عقله مستقلاً، وضعيفاً فى الوقت نفسه، لاحول له ولا قوة. ومن ثم تحتم عليه أن يختار من بين مختلف المعتقدات البشرية موضوعات ليؤمن بها هو، كما عليه أن يختار كثيراًمن الآراء فيصدقها من غير جدل أو نقاش، كى يتيسر له أن يحسن البحث والتحقيق فى ذلك العدد القليل من الشئون التى يخصها بالدرس والتنقيب. حقاً إن من يتقبل رأياً ما اعتماداً على الثقة بقائله إنما يجعل من عقله هو عبداً رقيقاً، ولكنه استرقاق محمود يمكّن له من أن يستخدم الحرية خير استخدام.

فمهما كان الأمر، فلابد إذاً من وجود مجال لمبدأ «السلطة» فى موضع ما، فى عالمى الأخلاق والعقل. وقد يختلف موضعه هذا كل الاختلاف، ولكن لامناص من وجوده فى مكان ما. فقد يزداد استقلال عقل الأفراد أو يقل، ولكنه لايمكن أن يكون استقلالاً مطلقاً لايحده حد. فليست المسألة إذن مسألة معرفة «سلطة» عقلية فى عصر من عصور الديمقراطية، ولكنها معرفة موضوع هذه السلطة والمعيار الذى تقدر به.

لقد بينا فى الفصل السابق، كيف أن تساوى الناس فى الأحوال الاجتماعية يدفعهم إلى الاستمساك بنوع من عدم التصديق لكل ما هو فوق الطبيعة، وأن يتخذوا لهم رأياً سامياً بشأن ما للعقل البشرى من قدرة، وهو رأي كثيراً ما يكون مسرفاً. فليس من السهل حمل الناس الذين يعيشون فى عصر من عصور المساواة الاجتماعية، على أن يضعوا هذه السلطة الفعلية، التى يذعنون لها، فوق البشر أو دونهم. فهم يبحثون عادة عن مصادر الحق فى أنفسهم، أو فى أمثالهم من البشر. وفى هذا ما يكفى للتدليل على أنه لايتسنى، لأى دين جديد أن يقوم فى مثل هذه الأوقات. وكل تدبير يتخذ لذلك يعد فسوقاً، إن لم يعد سخيفاً وبعيداً عن المعقول. ولا بأس من أن نتكهن بأن الشعب الديمقراطى لايصدق الرسالات الإلهية بسهولة. وقد يسخر من الأنبياء الجدد، ويسعى وراء استكشاف محك معتقداتهم، فى حدود بنى جنسهم هم لا خارجها.

فإن كانت طبقات المجتمع غير متساوية، وكان الناس يتعاونون بعضهم مع بعض فى أحوالهم الاجتماعية، فالمجتمع لايخلو من أفراد يمتازون بذكاء فائق وبعلم واسع واستنارة،

على حين تكون الكثرة الكاثرة غارقة فى الجهالة وآخذة بضروب التعصب. فالناس الذين يعيشون فى هذه الأوقات الأرستقراطية مدفوعين، بطبيعة الحال، إلى أن يشكلوا آراءهم بحسب معيار شخصى متفوق بارز، أو يشكلوها بمعيار طائفة متفوقة من الناس، على الرغم من أنهم يكرهون أن يعترفوا بعصمة الشعب فى جملته.

ويحدث عكس هذا فى العصور التى تسودها المساواة. فكلما اقترب الناس من التساوى فى الأحوال الاجتماعية، قل استعداد كل واحد منهم لأن يثق بشخص معين، أو بفئة معينة من الناس ثقة عمياء، أما استعداده للاعتقاد بسداد ما يراه الجمهور، فيزداد. وعندئذ يصبح الرأى العام فى ذلك العصر سيد العالم، وهذا هو الرأى الذى أخذ يسود العالم شيئاً فشيئاً.

فليس الرأى العام بالمرشد الوحيد الذى يستهدى به الفرد فى أحكامه على الناس والأشياء فى الشعب الديمقراطى فحسب، بل إن سلطان الرأى العام فى مثل هذا الشعب ليفوق سلطانه فى أى شعب آخر، فوقاً لاحد له. فالناس فى عصور المساواة لايثقون بعضهم ببعض لما بينهم من تشابه عام، ولكن هذا التشابه العام نفسه يجعل لهم ثقة لاحد لها أو تكاد تكون كذلك، برأى الجماعة وحكمها؛ فلما كانوا مزودين جميعاً بوسائل متساوية للحكم على الأشياء فمن المحتمل كل الاحتمال أن تكون الحقيقة فى جانب الرأى الذى يراه أكبر عدد من الناس.

فإن قارن أحد من سكان البلاد الديمقراطية نفسه بكل فرد من جميع الأفراد الذين حوله، شعر فى فخر واعتزاز، بأنه ند مساو لأى واحد منهم. أما عندما ينظر إلى بنى وطنه فى جملتهم، ويوازن نفسه بهذه الهيئة الضخمة من الناس غمره إحساس طاغ بضآلته وضعفه. فالمساواة ذاتها التى جعلته مستقلاً عن كل فرد من بنى وطنه تعرضه هو نفسه، من حيث هو فرد، غير محمى، لتأثير العدد الأكبر. ومن ثم كان الرأى العام فى الشعب الديمقراطى قوة عجيبة لاتتصورها الأمم الأرستقراطية - وذلك أنها لاتقنع الناس بالانضمام إلى آرائها، ولكنها تفرض هذه الآراء عليهم فرضاً، وتجعلها تتغلغل فى تفكير كل شخص عن طريق جعل عقل المجموع الهائل يضغط على عقل الفرد الضعيف.

وتقوم الغالبية فى الولايات المتحدة بتزويد الناس بطائفة معدة جاهزة من الآراء يستخدمها المواطنون مباشرة، وبذلك يكونون قد أعفوا من ضرورة القيام بتكوين آراء بأنفسهم. فكل إنسان هناك يعتنق عدداً كبيراً من النظريات فى الفلسفة وفى الأخلاق والسياسة، من غير أن يجشم نفسه مئونة بحثها وتحقيقها، ثقة منه بالجماعة. وإن نحن أمعنا النظر فيها بعناية ودقة لأدركنا أن الديانة نفسها لتسيطر فى تلك البلاد، من حيث هى رأى تقليدى مأثور، أقل مما تسيطر عليها بوصفها مذهباً منزلاً.

وضع الأمريكيون قوانين السياسية على نحو ييسر للأغلبية أن تحكم الجماعة حكماً

مطلقاً. فهذه القوانين تزيد بطبيعة الأحوال القوة التى تمارسها تلك الأغلبية على عقول الناس زيادة محسوسة. فمن عادة الإنسان أن يرى فى شخص من يستبد به ويظلمه، حكمة سياسية تفوق كل حكمة. ولا شك فى أن طغيان الأغلبية السياسى هذا فى الولايات المتحدة يزيد ذلك النفوذ، الذى كان يتسنى للرأى العام أن يحصل عليه بدونها، على عقل كل فرد من أفراد الجماعة. ومع ذلك فهذا النفوذ لا يقوم على طغيان الأغلبية؛ فينبغى أن نبحث عنه إذن فى مبدأ المساواة نفسه لا فى تلك المؤسسات الشعبية التى قد يقيمها الناس الذين يعيشون فى تلك الحال. فسيطرة الأغلبية الفكرية، وقد تكون مطلقة وطاغية فى شعب ديمقراطى يحكمه ملك، أقل منها فى نطاق الديمقراطية المحضة؛ ولكنها مع ذلك تظل مطلقة دائماً ومتطرفة كل التطرف، وأيا كانت القوانين السياسية التى يحكم بها الناس فى عصور المساواة، فلا ضير من أن نتكهن بأن الثقة بالرأى العام قد تصبح فى نظرهم نوعاً من الدين، الأغلبية نبيّهُ المرسل.

وهكذا تكون السلطة العقلية مختلفة، ولكنها لا تنقص. ومع أنه لا يخطر ببالى أنها قد تزول، فإنى أتنبأ بأنها ستكتسب مزيداً من الطغيان أكثر مما يجب لها، وتحصر مجال الأفراد فى حدود ضيقة بصورة لا تتناسب مع عظمة الجنس البشرى ولا مع سعادته. وإنى لأرى فى مبدأ المساواة نزعتين واضحتين: إحداهما تؤدى بعقل الإنسان إلى أفكار لم تختبر صحتها بعد، والأخرى تمنعه من التفكير على الإطلاق. وإنى لأتصور، كيف تستطيع الديمقراطية أن تقضى، بتأثير قوانين معينة، على تلك الحرية العقلية التى تكون الحالة الاجتماعية مواتية لها، فبعد أن يحطم العقل البشرى جميع القيود التى فرضتها عليه الجماعات أو الأفراد، يصبح مقيداً كل التقييد بالإرادة العامة للأغلبية.

فلو أحلت الشعوب الديمقراطية قوة الأغلبية المطلقة محل جميع تلك القوى المختلفة التى عطلت نشاط العقول الفردية أو أخرته، لظل البلاء على ما هو، وإن كان قد غير من طابعه، ولما وجد الناس الوسائل التى تمكنهم من أن يحيوا الحياة المستقلة، وإنما يكونون قد استكشفوا ملامح جديدة للعبودية ليس إلا (وهو أمر ليس بالهين). وأعود وأكرر، ومهما أكثرت من التكرار، فإننى لا أعد نفسى مسرفاً فيه، أن هنا مادة للتفكير العميق لمن يقدسون حرية التفكير، ولا يكرهون المستبد فحسب، بل يكرهون الاستبداد نفسه معه. أما أنا فكلما أحسست بثقل يد القوة ضاغطة على رأسى، لم أحفل بأن أعرف هذا الذى أرهقنى ظلماً، ولا أنا أشعر بميل إلى إدخال رقبتى فى النير من أجل أن التى تقدمه إلى سواعد مليون من الرجال.

الفصـــل الثالث

الأمريكيون أميل إلى الأخذ بالمعانى العامة والمدركات الكلية، وأكثر تذوقاً لها من أجدادهم الإنجليز

لاينظر الله إلى البشر كلهم جملة فحسب، ولكنه بلمحة واحدة يشملهم جملة، وفرادى، كلاً على حدة، ويعلم ما فى كل فرد من وجوه الشبه التى تجعله واحداً من بنى الإنسان، كما يعلم ما فيه من وجوه الخلاف التى تميزه عن غيره من الناس. فهو ليس بحاجة إلى معان عامة إذن، وبعبارة أخرى ليس بحاجة إلى جمع عدد كبير من الأشياء المتشابهة تحت عنوان واحد لزيادة تيسير عملية التفكير مثل بنى الإنسان[1].

أما الإنسان فأمره آخر. فإذا ما حاول العقل البشرى فحص جزىء من الجزيئات التى أمامه على حدة ليصدر فيه حكماً يصدق على سائره، فسرعان ما تضلله جسامة التفاصيل فلا يستطيع أن يدرك شيئاً ما، وعندئذ يلجأ إلى وسيلة قاصرة، وإن لم يكن له مندوحة عنها، لأنها تساعده على ضعفه، وتكشف له فى الوقت نفسه عن هذا الضعف.

فبعد أن يدرس الإنسان عدداً معيناً من الأشياء دراسة سطحية، ويلحظ ما بينها من وجوه الشبه، يطلق عليها اسماً ينتظمها جميعا ويميزها عن غيرها، ثم ينطلق بعد ذلك قدماً ليدرس غيرها.

فليست المعانى العامة أو المدركات الكلية دليلاً على قوة العقل البشرى وإنما هى شاهد على ما به من قصور وقلة كفاية، فليس فى الطبيعة كائنات متشابهة تمام الشبه، ولا حقائق متماثلة تمام التماثل، كما لاتوجد قواعد تصدق على أشياء متعددة بطريقة واحدة ومن غير تمييز. فأكبر ميزة للمدركات الكلية هذه أنها تمكن للعقل من أن يصدر حكماً سريعاً على عدد كبير من الأشياء دفعة واحدة. ومع ذلك، فالفكرة التى تحملها إلينا هذه المدركات، ناقصة دائماً، ذلك إلى أن هذه المدركات العامة تجعل العقل يفقد من الدقة بقدر ما يربحه من الشمول.

(١) هذه مقدمة لاهوتية لاندرى معنى لاستهلال هذا الفصل بها اللهم إلا نزعة المؤلف الدينية العامة.

وكلما تقدمت المجتمعات ألمت بحقائق جديدة، وحصلت كل يوم، وبشكل يكاد يكون لا شعورياً، على حقائق جزئية جديدة. فكلما كثر إلمام المرء بحقائق من هذا النوع ازداد طبعاً عدد ما يتصوره من المعانى الكلية العامة؛ فليس من الميسور له أن يدرك طائفة من الحقائق الخاصة، كلاً على حدة، من غير أن يدرك ما بينها من صلات مشتركة تربطها بعضها ببعض. فالفكرة التى تكونت من عدة جزئيات تؤدى إلى فكرة النوع، وتؤدى الفكرة التى تكونت من عدة أنواع، إلى فكرة الجنس. ومن هذا يتبين لنا أن عادة تكوين المدركات الكلية، أو المعانى العامة، والميل إليها، تكون على أشدها عند الشعوب ذات الحضارة التليدة والمعارف الواسعة المتعددة.

ولكن ثمة دواع أخرى تحفز الناس إلى التعميم أو تمنعهم منه.

فالأمريكيون يقبلون على استخدام المعانى العامة تلك أكثر مما يقبل عليها الانجليز، ويجدون متعة فى استخدامها أكثر منهم. وقد يبدو هذا غريباً كل الغرابة لأول وهلة، إذا ما راعينا أن أصل الأمتين واحد، وأنهما عاشتا قروناً طوالا فى ظل قوانين واحدة، وما زالتا دائبتين على تبادل الآراء والعادات الأخلاقية وآداب السلوك. هذا وتزداد المقابلة بينهما بعداً وحدة إذا ما ركزنا نظرنا على فرنسا وقارنا الأمتين اللتين تعدان أكثر أمم الأرض ثقافة واستنارة، بعضهما ببعض؛ فعندئذ يبدو لنا أن الإنجليز لا يستطيعون أن ينتزعوا عقولهم من الاشتغال بالجزئيات، والانتقال بها من المسببات إلى أسبابها إلا بكل مشقة وضجر. فهم لا يتجهون إلى التعميم إلا على كره منهم. أما الفرنسيون فأمرهم على النقيض من ذلك، إذ يبدو أن الميل إلى استخدام المعانى العامة قد استبد بهم وبلغ درجة تحتم عليهم إرضاءه فى كل حال. ففى الصباح، عندما أستيقظ من نومى أجد أن قانوناً أزلياً لم أكن قد سمعت به من قبل، قد استكشف تواً، وليس ثمة كويتب فرنسى لا يحاول أن يستكشف حقائق تصدق على «مملكة» كبرى. ولا هو يرتاح إن لم ينجح فى حشر الجنس البشرى كله فى نطاق مقالة يدبجها بقلمه.

فمثل هذا الفارق الكبير بين أمتين مستنيرتين كل الاستنارة، ليبعث فى نفسى الدهشة. فإن عدت ووجهت أفكارى إلى إنجلترا لأستقصى ما جرى من أحداث فى الخمسين سنة الأخيرة، خيل إلى أنى أستطيع أن أؤكد أن الميل إلى المعانى العامة آخذ فى الازدياد فيها كلما ضعف أثر دستورها العتيق.

فليست الاستنارة وحدها بكافية إذن لتفسير السبب الذى أوحى إلى العقل البشرى باستخدام المعانى العامة أو الامتناع عنه.

فإذا ما تفاوتت أحوال الناس تفاوتاً كبيراً ودائماً، ازدادت الفروق بين الأفراد شيئاً فشيئاً، حتى لنستطيع أن نقول إن كل طبقة منهم لتتخذ شكل جنس متمايز عن غيره. فلا يكون أبداً أمام أنظارنا فى اللحظة الواحدة سوى طبقة واحدة من هذه الطبقات، وإن نحن

أغفلنا رؤية هذه الصلة العامة التى تربطهم وتنظمهم جميعاً فى سلك الجنس البشرى لما كنا نصادف أبداً سوى أفراد من بنى الإنسان، لا الإنسان نفسه بمعناه العام، ومن حيث هو جنس. فالناس الذين يعيشون فى مثل هذه الحالة الأرستقراطية لا يتصورون أبداً معانى عامة خاصة بهم أنفسهم. وفى هذا مايكفى لتعويدهم سوء الظن بأمثال هذه المعانى العامة، ويبث فى نفوسهم كراهية عميقة لها تكاد تكون «فطرية».

وعلى العكس من ذلك أهل البلاد الديمقراطية. فكل فرد منهم يشاهد فى كل مكان حوله، رجالاً لايختلفون بعضهم عن بعض، إلا اختلافاً طفيفاً، فلا يستطيع أن يحول عقله إلى أى جزء واحد معين من البشر دون أن يوسع أفكاره ويمدها حتى تشملهم جميعاً. فيرى أن كل الحقائق التى تصدق على نفسه تصدق كذلك على مواطنيه، وعلى بنى جنسه كافة. وبعد أن يحصل على عادة تعميم أفكاره هذه فى الدراسات التى تهمه وتشغل باله أكثر من غيرها، تنتقل هذه العادة نفسها إلى سائر ما يشتغل به من أمور. وهكذا نجد الميل إلى استكشاف المعانى العامة فى كل شىء، ينتظم عدداً كبيراً من الأشياء فى صيغة واحدة بعينها أو فى قانون واحد، ويفسر طائفة كبيرة من الحقائق بسبب واحد؛ وسرعان ما يصبح هذا الميل راسخاً فى العقل، أو شهوة فى النفس عمياء طاغية.

وليس ثم شىء يوضح صدق هذه القضية مثل ما توضحها آراء القدامى عن الرق فى عصرهم. فأوسع الناس عقلاً وأعمقهم فكراً فى روما وفى اليونان لم يستطيعوا أبداً أن يتوصلوا إلى فكرة تشابه بنى الإنسان، وحق كل منهم الفطرى فى الحرية، وهى فكرة عامة كل العموم وبسيطة كل البساطة. فقد حاول هؤلاء المفكرون التدليل على أن الرق أمر طبيعى، وأنه باق لايزول، بل إن كل شىء يدل على أن من كانوا من هؤلاء المفكرين رقيقاً وعبيداً ثم تحرروا (وكثيرون منهم خلفوا لنا مصنفات رائعة من المرتبة الأولى) لم يكونوا ينظرون إلى الرق أبداً إلا على هذا الضوء.

فقد كان كبار الكتاب جميعاً فى العصور القديمة من الأرستقراطيين بمهنتهم، أو رأوا على الأقل هذه الأرستقراطية تنشأ أمامهم لاينازع فى أمرها اثنان. ولكن بعد أن اتسعت عقول هؤلاء الكتاب واتجهت اتجاهات عدة، حيل بينها وبين التقدم فى هذا الاتجاه المعين، فكان لابد من مجىء المسيح برسالته ليعلم الناس كافة أن البشر كلهم سواء ومتشابهون.

أما فى عصور المساواة، فالناس مستقلون بعضهم عن بعض، ومنعزلون وضعاف؛ فحركات الجماهير لاتكون فى تلك العصور موجهة دائماً بإرادة الأفراد أيا كانوا، فتبدو البشرية وكأنها تتقدم من تلقاء نفسها على الدوام. وكى يفسر الإنسان ما يجرى حوله فى العالم اضطر إلى البحث عن بعض الأسباب الكبرى التى تؤثر فى جميع السكان بصورة واحدة، وتحملهم جميعاً طواعية واختياراً على اختيار سلوك طريق واحد. وهذا يؤدى بدوره، بالعقل البشرى إلى العناية بإدراك معان عامة، ويولد فيه الميل إلى الأخذ بها.

سبق أن أوضحت كيف تؤدى المساواة فى الأحوال الاجتماعية بكل إنسان إلى البحث عن الحقيقة بنفسه. ولا يخفى أن كل طريقة من هذا القبيل لابد أن تؤدى بشكل غير محسوس إلى توليد ميل فى نفوس الناس إلى المعانى العامة. فإن أنا نبذت التقاليد المرعية فيما يتعلق بمراتب الناس ومقاماتهم ومهنهم ونسبهم، وتخلصت مما للقدوة من سلطان، كى أبحث بنفسى معتمداً على جهدى العقلى وحده -عن الطريق الذى ينبغى لى أن أسلكه، وجدتنى ميالاً إلى استمداد الحوافز التى تحرك تفكيرى من الطبيعة البشرية ذاتها. وهذا يفضى بى بالضرورة- وعلى غير تفطن منى تقريباً- إلى اعتناق عدد كبير من المعانى العامة المغرقة فى العموم.

فكل ما ذكرته هنا، يفسر لنا السبب فى أن الإنجليز يظهرون ميلاً إلى تعميم المعانى وقدرة عليه أقل كثيراً مما تظهر سلالاتهم من الأمريكيين. فهذا الميل وتلك القدرة هما أقل مما عند جيرانهم الفرنسيين، ويبين لنا كذلك السبب فى أن الإنجليز فى الوقت الحاضر يظهرون اهتماماً بهما أكثر مما كان يظهر أجدادهم.

فالإنجليز، أمة مستنيرة تماماً ومغرقة فى الأرستقراطية؛ فأحوالهم المستنيرة تدفعهم إلى التعميم، على حين تقصرهم عاداتهم الأرستقراطية على العناية بما هو جزئى وخاص، ومن ثم ظهرت فيهم تلك الفلسفة الجريئة الهيابة معاً، والضيقة والواسعة فى وقت واحد. وهى تلك الفلسفة التى ظلت تسود إنجلترا إلى يومنا هذا، ولا تزال تعوق تفكير الكثير من عقول الناس فيها أو تجعلها خاملة راكدة.

وثم أسباب أخرى مستقلة عن تلك التى سبق أن ذكرتها، وإن لم تكن تضاهيها من حيث الوضوح، فلا تقل عنها من حيث التأثير. وهى تحدث فى كل أمة ديمقراطية ميلاً إلى العناية بالمعانى العامة هذه، وكثيراً ما يصبح هذا الميل شهوة عارمة. ولكن يجب أن نفرق بين بعض هذه المعانى العامة (أو المدركات الكلية) وبعض؛ فمنها ما يأتى نتيجة عمل عقلى واع وبطىء وتفصيلى دقيق. فهذه المعانى العامة تعاون على توسيع نطاق المعارف البشرية؛ وثم غيرها تسنح للمرء بمجهود عقلى سريع ولا تؤدى إلا إلى أفكار ضحلة بعيدة عن اليقين.

فالناس الذين يعيشون فى العصور التى تسودها المساواة يتميزون بكثير من الفضول وحب الاستطلاع، وبقليل من أوقات الفراغ؛ فحياتهم عملية معقدة ومضطربة، ونشيطة كل النشاط حتى أنها لاتبقى لهم وقتاً للتفكير. فأمثال هؤلاء الناس يميلون إلى الاهتمام بالمعانى العامة لأنها توفر عليهم مئونة دراسة الحالات الجزئية، لأن هذه المعانى تشمل الكثير فى حيز ضئيل، وتغل فى وقت قصير محصولاً وفيراً. فإن خيل إليهم بعد بحث قليل لا تعمق فيه أنهم أدركوا علامة مشتركة بين أشياء معينة، لم يجشموا أنفسهم مئونة الاستمرار فى البحث، فلا يسيرون فيه أبعد مما ساروا. ومن غير أن يقوموا ببحوث تفصيلية عن مدى اتفاق هذه الأشياء، أو اختلافها بعضها عن بعض، فإنهم يسارعون إلى وضعها تحت عنوان واحد، كى ينتقلوا إلى موضوع آخر.

فمن الخصائص التى يتميز بها كل عهد ديمقراطى، أن يميل الناس فيه إلى إحراز النجاح من أهون سبيل، والاستمتاع بالمتع العاجلة. ويتجلى هذا فى ميدان الأمور العقلية، وفى سواها. فمعظم الذين يعيشون فى عصر من عصور المساواة، تمتلىء نفوسهم بطموح يقظ متحفز، وخامل معاً، فى الوقت نفسه. فهم يبغون أن يحصلوا فوراً على نجاح عظيم، ومع ذلك يتحاشون بذل أى مجهود كبير لتحقيق ذلك النجاح. فهاتان النزعتان المتضادتان تدفعان الناس مباشرة إلى السعى وراء المعانى العامة، فيخادعون بها أنفسهم بأنهم يستطيعون أن يضعوا خططاً واسعة لاتكلف بذل الكثير من الجهود، ويسترعوا أنظار الجماهير دون أن يتجشموا فى ذلك أية مشقة تذكر.

ولست أدرى إن كانوا على خطأ فى تفكيرهم هذا، لأن قراءهم مثلهم يكرهون الإمعان فى بحث أى شىء وتعمقه. فلا يعدو ما يتطلبون الحصول عليه من وراء القراءة والاطلاع - لا يعدو المتعة السهلة، واكتساب المعلومات من غير كد.

فإذا كانت الأمم الأرستقراطية لا تستخدم المعانى العامة استخداماً كافياً، وأنها كثيراً ما تتناولها بشىء من الاحتقار الأخرق، فالأمم الديمقراطية، من جهة أخرى، تبدى دائماً استعداداً للإسراف فى استخدام هذه المعانى العامة وتتحمس لها تحمساً أقرب إلى الخرق منه إلى الحكمة.

الفصـــل الرابـع

الأمريكيون لايقبلون على المعانى العامة فى الشئون السياسية إقبال الفرنسيين عليها

أشرنا من قبل أن الأمريكيين لا يميلون إلى الاهتمام بالمعانى العامة ميل الفرنسيين لها . فهذا القول يصدق على السياسة بصورة خاصة .

فمع أن الأمريكيين يدمجون فى تشريعاتهم أفكاراً عامة أكثر مما يفعل الانجليز ، ويجاهدون أكثر منهم فى أن يكيفوا ممارسة الأعمال البشرية بحسب النظريات ، لم يحدث فى الولايات المتحدة أن أظهرت هيئات سياسية محبة عظيمة للمعانى العامة بقدر ما أظهرته الجمعية التأسيسية ، أو أظهره الكنفسيون Convention فى فرنسا[1] ، فلم يحدث أن عنى الأمريكيون بمدركات عامة من هذا القبيل ، بمثل تلك الهمة العظيمة التى أبداها فيها الشعب الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، أو أظهروا نفس تلك الثقة العمياء بقيمة أية نظرية وبصدقها المطلق .

ويرجع ما بين الأمريكيين والفرنسيين من فرق هنا إلى عدة أسباب ، ولكنه يرجع أساساً إلى أن الأمريكيين شعب ديمقراطى اعتادوا أن يوجهوا شئونهم العامة بأنفسهم ؛ والفرنسيون شعب ديمقراطى كذلك ولكنهم ظلوا ردحاً طويلاً من الزمن ، وهم لا يستطيعون غير التفكير فى خير طريقة لإدارة شئونهم العامة . فأحوال الفرنسيين الاجتماعية هيأت لهم أن يتصوروا معانى عامة كل العموم فى شئون الحكم ، على حين كان نظامهم السياسى يمنعهم من أن يصححوا هذه الآراء ويقوّموها بما حصلوا عليه من التجارب والخبرة ، ومن أن يدركوا شيئاً فشيئاً ما بها من نقص وقصور . أما فى أمريكا فهذان الأمران يوازن أحدهما الآخر ، ويصحح من أخطائه باستمرار .

وقد يبدو لأول وهلة أن هذا يتناقض كل التناقض مع ما قلته من قبل ، وهو أن الأمم الديمقراطية تستمد محبتها للنظريات مما فى حياتها من الاستثارة والنشاط ، ولكن مزيداً من الانتباه إلى ما قلت ، يوضح أن ليس فيه أى تناقض .

---

(١) وبعبارة أخرى ظلت السياسة فى فرنسا أمداً طويلاً موضع مناقشات وبحوث نظرية وتأملات مجردة ، بعيدة عن الناحية العملية لأن الشعب لم يكن يشترك بشىء فى حكومة البلاد .

فالناس فى البلاد الديمقراطية، يقبلون أيما إقبال على الأخذ بالأفكار العامة، لقلة ما لديهم من الفراغ، ولأن هذه المعانى العامة توفر عليهم مشقة دراسة الجزئيات وفحصها. وهذا حق؛ إلا أنه ينبغى أن يؤخذ على أنه لايصدق إلا على الأمور الخارجة عن الموضوعات التى يفكرون فيها عادة، أو هو يصدق على الموضوعات الضرورية لهم كل الضرورة.. فالمشتغلون بالتجارة مثلاً يتقبلون فى يسر ولهفة، وبغير تمعن وتدقيق، جميع المعانى العامة التى تعرض عليهم فى الفلسفة والسياسة والعلوم والفنون والإدارة، على حين أنهم لايتقبلون المعانى العامة التى تتصل بشئون التجارة إلا بعد تمعن وبحث دقيق، ولا هم يقبلونها إلا بكل تحفظ؛ وينطبق هذا نفسه على السياسيين فيما يتعلق بالمعانى العامة التى تمت إلى الشئون السياسية بسبب ما.

ومن ثم، كان هناك موضوع خاص يحتمل أن ينهمك الشعب الديمقراطى فيما فيه من معان عامة انهماكاً خاصاً بشكل أعمى، وإسراف كبير، فخير علاج لشفاء هذا الشعب منه أن نجعل هذا الموضوع جزءاً متصلاً بحرف الناس العملية، فيضطر كل امرىء منهم عندئذ إلى العناية بما فيه من تفاصيل؛ تكشف له عما فى النظريات من نقاط الضعف. وكثيراً ما يكون هذا العلاج شاقاً مؤلماً، ولكن تأثيره ناجع يقيناً.

وهكذا نجد المؤسسات الديمقراطية التى تتطلب من كل مواطن أن يضطلع بنصيب عملى فى الحكم، تقلل من أثر ذلك الميل المفرط إلى العناية بالنظريات العامة فى السياسة، والذى يدفع إليه مبدأ المساواة.

الفصـــل الخامس

استفادة الدين من النزعات الديمقراطية فى الولايات المتحدة

أبنت فى فصل سابق أن الناس لا يستغنون عن المعتقدات الحتمية، بل إنه لمن المرغوب فيه أن تقوم فيهم مثل هذه المعتقدات. وأزيد هنا على ذلك أن أفضل أنواع تلك المعتقدات «الحتمية» المرغوب فيها، هى فى نظرى، تلك التى لها صلة بشئون الدين. وهذه نتيجة واضحة حتى وإن كان المرء لا يرغب أن يوجه اهتمامه إلا إلى رعاية المصالح الدنيوية.

فلا يكاد يوجد عمل ما من أعمال البشر، مهما كان ذلك العمل جزئياً فى ظاهره، لا يرجع أصلاً إلى ما لدى الناس من فكرة عامة عن الله، وعن صلتهم بخالقهم، وكذلك عن طبيعة الروح، وواجباتهم نحو بنى جنسهم. وليس ثمة ما يمنع هذه الأفكار العامة نفسها أن تكون المصدر المشترك الذى تنبثق منه سائر الأفكار العامة، فلا غرو أن اهتم الناس كل الاهتمام بالحصول على أفكار محددة كل التحديد عن الله، وعن الروح، وعن واجباتهم نحو خالقهم ونحو بنى جنسهم، فالتشكك فى هذه النقاط الأولى قد يلقى بكل أفعال الناس إلى المصادفة ويقضى عليهم بالفوضى والضعف، بشكل ما.

هذا هو إذن الموضوع الذى يهم كل واحد منا بالغ الأهمية، أن يكون لديه فيه آراء ثابتة محددة؛ ولكنه أيضاً، مع الأسف، الموضوع الذى يصعب فيه كل الصعوبة على المرء منا، إذا ما ترك وشأنه، أن يقطع فيه برأى على أساس عقله هو وحده. فليس غير العقول المتحررة كل التحرر من جميع المشاغل العادية فى هذه الحياة – العقول النافذة الواسعة الحيلة، المدربة على حسن التفكير – تستطيع بما تبذله من جهد وتنفقه من وقت، أن تنفذ إلى أعماق هذه الحقائق التى لا يستغنى عنها أحد. بل إنا لنرى الفلاسفة أنفسهم، قد أحيطوا دائماً بالشكوك، وعدم اليقين من كل جانب؛ وأن النور الطبيعى الذى يستهدون به فى كل خطوة يخطونها فى طريقهم ليخفت باستمرار حتى يكاد يهددهم بالانطفاء؛ وعلى الرغم من كل ما يبذله هؤلاء الفلاسفة من جهد، فإنهم لم يتوصلوا بعد إلا إلى استكشاف بضعة أفكار متناقضة ظلت عقول الناس تحار فيها آلاف السنين دون أن يصلوا فيها إلى الحقيقة تماماً، بل دون أن يعثروا حتى بشىء

مما فيها من أخطاء. فدراسة مثل هذه الموضوعات شاقة على الناس ذوى القدرات المتوسطة. وحتى لو كان فى مقدور الجمهرة الكبرى من البشر أن يتابعوا مثل هذه الدراسات لما وجدوا الفراغ الذى يتيح لهم الاستمرار فيه.

فالأفكار المحددة التى عن الله، وعن الطبيعة البشرية، لايستغنى عنها الإنسان فى ممارسته شئون حياته اليومية. ومن جهة أخرى، فالقيام بشئون هذه الحياة وانشغال الإنسان بها، يحول بينه وبين الحصول على هذه الأفكار المحددة.

وهذه صعوبة تبدو لى منقطعة النظير. إذ لايخفى أن من العلوم ما هو نافع للبشر وفى متناولهم الحصول عليه؛ ومنها مالاتستطيع معالجته إلا القلة من الصفوة. أما الكثرة من الناس فيعجزون عن موالاته، لأنهم لايحتاجون إلا إلى تطبيقاته البعيدة فحسب، ولكن العلم الذى أتحدث عنه لاغنى لأحد عن ممارسته كل يوم، على الرغم من أن دراسته بعيدة عن متناول الجزء الأكبر من الناس.

فالأفكار العامة عن الله، وعن الطبيعة البشرية هى إذن أولى من غيرها بألا تعرض لعمليات أحكام الفرد العادية، والتى إذا ما اعترف فيها بمبدأ «السلطة» تحقق له من وراء ذلك الاعتراف أكبر ربح، وأدنى خسارة.

فأول غرض من أغراض الدين، وهو فائدة من أهم فوائده، أن يزود الناس فى جملتهم بحل لكل مسألة من هذه المسائل الأساسية، يكون واضحاً ودقيقاً ومفهوماً وثابتاً كل الثبات.

ولا يخفى أن من الديانات ما هو زائف وسخيف كل السخف، ومع ذلك ففى وسعنا أن نقول: إن كل ديانة حاولت أن تلتزم الدائرة التى رسمتها، توا، من غير أن تتجاوزها (كما حاولت ديانات كثيرة، بقصد الحد من كل ناحية من نواحى حرية العقل البشرى) إنما تفرض قيداً نافعاً على العقل، ويجب أن نسلم بأنها إن لم تستطع أن تخلص الناس وتنجيهم من العذاب فى الآخرة، فإنها تعاون على إسعادهم وعلى عظمتهم فى هذه الدنيا على الأقل.

ويصدق هذا بوجه خاص على الذين يعيشون فى بلاد حرة، فإذا ما تقوضت ديانة شعب ما، استولى الشك على قوى العقل السامية، وكادت سائر القوى أن تشل، فيعتاد كل امرىء ألا يكون لديه سوى أفكار مضطربة قلقة متغيرة عن الموضوعات التى تهمه وتهم سائر الناس كل الاهتمام. فتكون آراؤه فاشلة لايستطيع الدفاع عنها، ومن ثم سهل عليه تركها والتخلص منها؛ ثم بعد أن يستولى عليه اليأس من أن يتوصل بنفسه إلى حلول للمشكلات المعضلة التى تدور حول مصير الإنسان، إذا به يرضى فى ذلة وهوان بألا يعود أبداً إلى التفكير فيها.

إن حالة مثل هذه لابد مؤدية إلى إضعاف الروح والإرادة وإعداد الشعب للعبودية.

فقد يحدث فى مثل هذه الحالة ألا يدع الناس حريتهم تغتصب منهم فحسب، بل كثيراً ما يسلمونها هم بأنفسهم. فإن لم يعد فى الدين ولا فى السياسة مبدأ من مبادىء «السلطة»، فسرعان ما يستولى الذعر على الناس من مثل هذا الاستقلال المفرط الذى لايحد. فاستمرار الاضطراب فى كل ما حولهم يخيفهم ويستنفد قواهم. وإذ صار كل أمر من أمور العقل فى اضطراب وجهوا اهتمامهم إلى جعل كل ما حولهم من الشئون المادية، على الأقل، ثابتاً محدداً. ومادامو لا يستطيعون استعادة اعتقادهم القديم، اتخذوا لهم سيداً عليهم.

وإنى لأشك كل الشك فى قدرة الإنسان على تحمل الاستقلال التام فى شئون الدين، والحرية المطلقة فى شئون السياسة معاً؛ وأميل إلى الظن بأن الإنسان إن أعوزه الإيمان، لابد أن يصبح تابعاً خاضعاً؛ أما إن كان حراً فلابد له من أن يؤمن.

ومع ذلك فقد تكون فائدة الدين العظمى هذه، لاتزال فى الأمم التى تسودها المساواة فى الأحوال الاجتماعية، أوضح مما فى غيرها، فينبغى أن نعترف أن المساواة التى تؤدى للدنيا منافع جسيمة توحى إلى الناس، مع ذلك، كما سترى بعد، بميول ونزعات خطرة كل الخطر مما قد يعزلهم بعضهم عن بعض، ويركز انتباه كل إنسان فى ذات نفسه وحدها، ويعرضه للإفراط فى حب المتع المادية واللذات الحسية حباً غير عادى.

فأعظم فوائد الدين أنه يوحى إلى الإنسان بمبادىء عكس هذه على خط مستقيم. فليس ثمة دين لايضع رغائب الإنسان ومشتهياته فوق ذخائر هذه الدنيا وأسمى منها. وليس ثمة دين لايسمو بروح الإنسان إلى ميادين أسمى من عالم الحس، بمراحل عظيمة؛ وما من دين إلا ويفرض على الإنسان بعض واجبات نحو بنى جنسه، وبذلك يبعده من حين إلى حين عن التفكير فى نفسه؛ وإنك لتجد ذلك فى أشد الأديان بطلاناً وأكثرها خطراً.

وعلى ذلك كانت الأمم المتدينة قوية بطبعها من حيث النقطة نفسها التى تكون فيها الأمم الديمقراطية ضعيفة، مما يوضح لنا مدى أهمية محافظة الناس على دينهم كلما تساوت أحوالهم الاجتماعية.

ليس من حقى، ولا هو من قصدى، أن أبحث هنا عن الوسائل العلوية التى يبث بها الخالق المعتقدات الدينية فى نفوس الناس، فأنا إنما أنظر إلى الدين هنا من وجهة النظر الإنسانية ليس إلا. فغرضى البحث عن الوسائل التى تيسر للأديان أن تحافظ على سلطانها فى يسر وسهولة فى العصور الديمقراطية التى نحن مقبلون عليها.

لقد بينا فيما سبق أن العقل البشرى، فى العصور التى تنتشر فيها الثقافة العامة، والمساواة فى أحوال الناس الاجتماعية، لايتقبل الآراء «الحتمية» إلا على كره منه، ولا هو يشعر بضرورتها، ومسيس الحاجة إليها إلا فى الشئون الروحانية. وهذا يدل أولاً، على أن

الديانات فى مثل هذه العصور يجب أن تحرص على التزام مجالاتها الخاصة أكثر مما تحرص عليها فى الأوقات الأخرى. فإنها، وهى تحاول أن تتجاوزها، وتبسط سلطانها على غير الأمور الدينية، تتعرض لخطر أن لا يؤمن بها أحد مطلقاً. فينبغى إذن أن ترسم الدائرة التى تعمل الأديان على حصر العقل البشرى فيها، بعناية وحذر. أما خارج هذه الدائرة فيجب أن يكون العقل البشرى حراً مطلق الحرية لا يهتدى إلا بأحكامه هو.

لم يكن ما نزل على محمد فى القرآن مقصوراً على أصول الدين وحدها، بل شمل كذلك قواعد سياسية، وقوانين مدنية وجنائية ونظريات علمية. أما الإنجيل فلم يتحدث إلا عن علاقات الناس العامة بالله وعن علاقاتهم بعضهم ببعض، وفيما عدا ذلك فإنه لم يعلم الناس شيئاً، ولم يفرض عليهم اعتقاداً ما، ففى هذا وحده، دون آلاف أخرى من الأسباب، ما يكفى للدلالة على أن سيادة[1] أولى هاتين الديانتين لا يمكن أن تظل طويلاً فى عصور الاستنارة والديمقراطية، على حين أن الديانة الثانية مقدور لها أن تحتفظ بسيادتها فى مثل هذه العصور وفى غيرها.

فإن أنا استمررت فى بحث هذا الموضوع نفسه لوجدت أن الأديان، كى تظل تحافظ على نفسها (من الجهة الإنسانية) فى العصور الديمقراطية يجب أن تقصر نفسها على دائرة الأمور الدينية وحدها فحسب، ويجب أن تراعى كذلك أن قوتها تتوقف إلى حد كبير على طبيعة المعتقدات التى جاءت بها، كما تتوقف على المظاهر الخارجية التى تتطلبها، وعلى ما تفرضه على الناس من التزامات.

وما ذكرته من قبل بشأن أن المساواة قد تؤدى بالناس إلى الأخذ بمعان عامة مسرفة فى العموم، وواسعة كل السعة، يجب أن يفهم أساساً من حيث ما يتصل بالأمور الدينية. فالناس المتساوون فى أحوالهم الاجتماعية فى هذه الدنيا يدركون فى يسر أن الله واحد ويقضى بين الناس بقوانين واحدة، ويمنح كلاً منهم السعادة فى الآخرة بشروط واحدة. ففكرة وحدة البشر تؤدى باستمرار إلى الاعتقاد بوحدانية الخالق. أما فى المجتمع الذى ينقسم فيه الناس أقساماً متفاوتة كل التفاوت فى مراتبها، فإنهم على العكس من ذلك، قد يقيمون لهم آلهة كثيرة بعدد ما فى العالم من أمم وطبقات مغلقة، وطوائف، وأسرات، ويرسمون آلافاً من الطرق الخاصة المؤدية إلى الجنة.

ولا نكران أن المسيحية نفسها قد شعرت إلى حد ما بتأثير الأحوال الاجتماعية والسياسية فى الآراء الدينية.

---

(١) ليس من شك فى أن الإسلام دين وشريعة. ولا شك كذلك فى أنه يدعو إلى البحث والتعلم وطلب العلم من المهد إلى اللحد، والسعى فى طلبه هذا ولو فى أقاصى الأرض. ذلك إلى أن الناحية الديمقراطية من أبرز نواحيه. فالروح الديمقراطية والعناية بالبحث والتفكير وبالعلم ونشره مكنت للحضارة الإسلامية أن تزدهر وتصبح أزهى حضارات العالم فى العصر الوسيط. وكان اتصال أوروبا بهذه الحضارة فى ذلك العصر من أهم الحوافز التى عاونت الأوروبيين على الانتقال من العصور الوسطى المظلمة عندهم إلى عصر النهضة والاستنارة.

فأول ما ظهرت المسيحية، كانت العناية الإلهية التى قد أعدت هذا العالم لظهورها، فقد قضت بجمع جزء كبير من الجنس البشرى وحشدته تحت صورة قطيع ضخم تحت حكم قياصرة الروم. وكان الناس الذين يتكون منهم هذا الحشد يتميزون بعضهم عن بعض بفوارق كثيرة منوعة، ولكنهم كانوا يشتركون جميعا فى أنهم يطيعون قوانين واحدة، وفى أن كل فرد منهم ضعيف، وتافه إذا ما قيس بالإمبراطور، لدرجة أنهم كانوا يبدون جميعاً متساوين إذا قورنت أحوالهم بأحواله. فحالة الناس الجديدة الخاصة هذه، جعلتهم بالضرورة ميالين إلى تقبل تلك الحقائق العامة التى جاءتهم بها المسيحية، وتفسر لنا تلك السهولة، وتلك السرعة التى نفذت بها هذه الحقائق إلى عقولهم.

وعكس هذه الحالة يتجلى فيما حدث بعد سقوط امبراطورية الرومان. فلما تحطم العالم الرومانى وتفرقت أجزاؤه شذر مذر، عادت كل أمة من هذه الأمم إلى فرديتها الأولى، وسرعان ما نشأ فى قلب كل أمة سلم للمراتب الاجتماعية متدرج تدرجاً لا آخر له، وبرزت الأجناس المختلفة بصورة أعظم وأشد تحديداً، وقسمت الطبقات المغلقة كل أمة شعوباً عدة. ففى وسط هذا المجهود المشترك الذى بدا كأنه سيقسم المجتمع البشرى إلى أكبر عدد يمكن للعقل أن يتصوره، لم تغفل المسيحية عن تلك الأفكار العامة الرئيسية التى جاءت بها إلى هذه الدنيا. ومع ذلك فقد ظهرت وكأنها تتجه بكل ما فى وسعها نحو تلك النزعات الجديدة التى أحدثها تفتت الجنس البشرى هذا، وانقسامه آلاف الأقسام. لقد ظل الناس يعبدون إلهاً واحداً، بارىء الخليقة وحافظها، ولكن كل شعب وكل مدينة، بل وكل إنسان أيضاً، اعتقد أن فى استطاعته أن يحصل على ميزة خاصة لنفسه، وعلى أن ينال الحظوة لدى نظير له من خواص المقربين إلى الله. فلما عجزوا عن تقسيم الإله نفسه، استكثروا من عدد وكلائه وغالوا بأهميتهم كل المغالاة حتى صارت مظاهر الإجلال والاحترام الواجبة للقديسين والملائكة أشبه بعبادة الأوثان فى نظر معظم المسيحيين، حتى خيف على المسيحية نفسها من أن تنتكس وتعود إلى تلك المعتقدات الخرافية التى كانت قد قضت عليها من قبل.

وظاهر، أنه كلما زالت الحواجز التى تفصل كل أمة عن أخرى فى هذه الدنيا، وتفصل كل مواطن عن أخيه فى الأمة الواحدة، اتجه العقل البشرى، كالمدفوع من تلقاء نفسه، نحو الاعتراف بإله واحد قادر على كل شىء يعامل الناس كافة بقوانين واحدة وبطريقة واحدة. فمن الأهمية بمكان إذن، فى تلك العصور الديمقراطية خاصة، أن لا يسمح بالخلط بين الاحترام الذى يوجه إلى الأولياء والقديسين وبين العبادات الواجبة للخالق وحده.

وثم حقيقة أخرى لا تقل فى نظرى وضوحاً عما سبقها. فالشعائر الدينية الخارجية يجب أن تكون أقل فى العصور الديمقراطية منها فى العصور الأخرى.

وسبق أن بينت عند الكلام على منهج الأمريكيين الفلسفى، أن العقل لاينفر فى عصور المساواة من شىء ما، نفوره من الإذعان للأخذ بالشكليات والمظاهر. فالناس الذين فى مثل تلك العصور لايطيقون الصبر على تلك الرموز، فهى لاتعدو فى نظرهم أن تكون مجرد حيل صبيانية قصد بها أن تخفى حقائق يجب أن تعرض بشكل علنى سافر فى رائعة النهار. فهم بطبيعتهم لاتحركهم إقامة الاحتفالات، ولا الاهتمام بالطقوس، ولا هم يميلون لأن يجعلوا لتفاصيل العبادة الجماعية غير أهمية ثانوية.

فعلى من يقع عليهم عبء تنظيم طقوس الدين الخارجية فى عصر ديمقراطى أن ينتبهوا كل التنبه إلى نزعات العقل البشرى الفطرية هذه، حتى لايصطدموا بها لغير ضرورة.

وإنى لأومن كل الإيمان بضرورة تلك المظاهر الخارجية والشكليات التى تركز العقل البشرى فى التأمل فى الحقائق المجردة، وتعاونه على اعتناقها فى تحمس وحرارة، وعلى الثبات على الاستمساك بها. ولست أتصور أنه فى الإمكان المحافظة على دين ما ليس له شعائر خارجية يراعيها المؤمنون به. ولكنى، من جهة أخرى، مقتنع كل الاقتناع بأن الإسراف فيها، والاستكثار منها استكثاراً لايقف عند حد فى العصور التى نحن مقبلون عليها، سيكون خطراً كل الخطر، وأنه لأحرى بنا أن نقصرها على ما هو ضرورى ضرورة ملحة للمحافظة على المبدأ نفسه الذى يعد جوهر الدين، والذى تعد الأشكال الخارجية رمزاً له وتعبيراً عنه. فالدين الذى أصبح يحرص كل الحرص على مراعاة التفاصيل، حتى أصبح غير سمح، ومثقلاً بمراسم وطقوس صغيرة، فى الوقت الذى ازدادت فيه المساواة بين الناس، هذا الدين سرعان ما يصبح مقصوراً على فئة صغيرة من المتعصبين المتحمسين، وسط جمهور كبير من المتشككين.

هذا، وقد يعترض علينا، بأن جميع الأديان لها حقائق عامة خالدة، تجعلها غرضاً لها، ومن ثم لاتستطيع أن تكيف نفسها بحسب ميول كل عصر، وهى ميول متغيرة، من غير أن تفقد فى أعين البشر ما تطالب به لعقائدها من سمات اليقين. وإنى لأعود وأجيب على ذلك بأن الآراء الرئيسية التى تعد عماد عقيدة ما، والتى يسميها رجال الدين بقواعد الإيمان، يجب أن تميز بكل حرص وعناية من الحواشى المتصلة بها. فليس للأديان مندوحة عن أن تستمسك كل الاستمساك بالأولى، مهما كانت روح العصر الخاصة؛ ولكن علينا أن تعنى كل العناية بألا تتقيد إلى هذا النحو ذاته بما يتعلق بالثانية فى الوقت الذى يكون فيه كل شىء فى تحول وتطور، وحيث العقل البشرى (وقد تعود على إدراك موكب البشرية المتحرك) يأبى، إلا على كره منه، أن يظل جامداً على نقطة ما أيا كانت. فدوام الأشياء الثانوية والخارجية لامكان له فى نظرى إلا عندما يكون المجتمع المدنى نفسه راكداً لايتطور. أما فى حالة أخرى فهو فى رأيى خطر.

وسيتضح لنا فيما بعد أن بين جميع الشهوات التى تولدها المساواة، أو تؤيدها شهوة معينة تجعل هذه المساواة متوهجة بوجه خاص، وتبثها فى قلب كل إنسان. وما تلك الشهوة

سوى حب (الرفاهية)؛ فالميل إلى الرفاهية قوى طاغ، وهو السمة البارزة التى لاتمحى، من السمات التى تتميز بها العصور الديمقراطية .

ولا مانع من أن نعتقد أن الديانة التى تجعل همها القضاء على عاطفة راسخة هذا الرسوخ، مآلها أن تهلك بها، وإن حاولت أن تحرم على الناس تحريما مطلقاً أن يفكروا فى خيرات هذه الدنيا وطيباتها كى يوجهوا كل مواهبهم وقدراتهم إلى التفكير فى الآخرة وحدها - فأنذرها بأن عقول الناس سينتهى بها الأمر إلى أن تفلت من سيطرتها أو تتجه إلى الاقتصار على الانهماك فى الاستمتاع بما فى هذه الدنيا من الملذات الحسية .

فمن أهم ما يعنى به كل دين من الأديان هو العمل على تطهير هذا الميل المفرط إلى الرفاهية وحدها، وتنظيمه وكبحه، وهو ميل يشعر به الناس فى عصور المساواة. ولكن من الخطأ أن نحاول كبته تماماً أو اقتلاعه من النفوس؛ فمن الصعوبة بمكان تحويل الناس عن حب المال، ولكن من الميسور إقناعهم بضرورة كسبه من طريق حلال .

وهذا يفضى بنا إلى نقطة أخيرة تشمل سائر النقاط بشكل ما. فكلما ازدادت أحوال الناس الاجتماعية مساواة صار من الأهمية بمكان للأديان، وهى الحريصة على الابتعاد عن شئون الحياة اليومية ومتاعبها، أن لاتصدم، لغير ضرورة، الأفكار العامة التى يسلم بها الناس عادة، ولا تلك المصالح الدائمة التى يهتم بها الشعب. فكلما صار الرأى العام أكبر السلطات القائمة وأعظمها سلطاناً، لايتبقى للمبدأ الدينى خارج نطاقه، أى سند قوى يمكن له من أن يصمد أمام هذا الرأى العام الطاغى. ويصدق هذا على الشعب الديمقراطى الذى يحكمه مستبد، كما يصدق على النظام الجمهورى. فكثيراً ما يتطلب الملوك الطاعة فى عصور المساواة، على حين تتطلب الأغلبية الإيمان دائماً. فيجب أن تحترم الأغلبية إذن فى جميع ما لايتناقض مع العقيدة .

لقد أبنت فى الجزء الأول من هذا الكتاب كيف أن رجال الدين الأمريكيين ينأون بأنفسهم عن الاشتغال بالشئون الدنيوية. فهذا أوضح مثال على قدرتهم العظيمة على ضبط أنفسهم، ولكنه ليس بالمثل الوحيد. فمجال الدين فى أمريكا منفصل عن سائر المجالات؛ والسيادة فيه للقسيس الذى يحرص على ألا يغادره. ففيه يسيطر على عقول الناس، أما خارجه فهو يدعهم وشأنهم ويتركهم لاستقلالهم وعدم استقرارهم الأمرين اللذين من طبيعتهم وطبيعة عصرهم. ولم أر فى حياتى بلداً تظهر فيه المسيحية فى صور وأشكال وطقوس أقل مما تظهر به فى الولايات المتحدة؛ ولا بلداً يقدم للعقل البشرى أفكاراً محددة بسيطة وعامة مثلما تقدمه. ومع أن المسيحيين فيها ينقسمون طوائف عدة، فهم ينظرون جميعاً إلى الدين على هذا الضوء. ويصدق هذا على الكاثوليك كما يصدق على سائر الطوائف. فليس فى العالم قسس من الكاثوليك يظهرون ميلاً إلى ضرورة الطقوس الدينية، ولا إلى وسائل النجاة الخاصة أو غير العادية، أقل مما يظهره القسس الأمريكيون .

ولا من يتعلقون بروح الدين أكثر منهم، ولا بحريته أقل منهم. ولا يوجد بلد آخر يعلم فيه مبدأ الكنيسة الذى يحرم توجيه العبادات الخاصة بالله وحده، إلى القديسين، بأوضح مما يعلم فيها أو يتبع. ومع ذلك كله فأصحاب المذهب الكاثوليكى فى أمريكا خاضعون كل الخضوع ومخلصون كل الإخلاص.

وثم ملاحظة أخرى تصدق على رجال الدين من كل طائفة من الطوائف المسيحية. فخدام الإنجيل الأمريكيون لايحاولون توجيه أفكار المرء كلها إلى الحياة الأخرى وحصرها فيها، بل إنهم ليرضون منه أن يوجه شطراً من اهتمامه إلى شئون هذه الحياة الدنيا، فكأنهم يعتبرون طيبات هذه الدنيا أموراً هامة. وإن كانت فى مرتبة ثانوية. فإن لم يشاركوا هم أنفسهم فى الأعمال الصناعية[1] والتجارية الإنتاجية، فإنهم يهتمون على الأقل بالعمل على إنجاحها، ويغتبطون بما تناله من تقدم وازدهار. ومع أنهم لايملّون من الإشارة إلى كل مؤمن -بأن الآخرة معقد آمالهم ومصدر مخاوفهم، فإنهم لايمنعونه من أن يسعى مخلصاً وراء السعادة فى هذه الدار الدنيا. فبدلاً من أن يبينوا أن هذين الأمرين منفصلان ومتناقضان لا يأتلفان، عكفوا على دراسة المواضع التى يمكن أن يلتقيا فيها ويرتبطا بعضهما ببعض أوثق ارتباط.

فالقسس الأمريكيون جميعاً يعرفون ما للأغلبية من سلطان على العقول، ومن ثم صاروا يحترمون هذا السلطان، ولا هم يتعرضون أبداً للاصطدام به، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك؛ ولا هم يشاركون فى مهاترات الأحزاب، ولكنهم لايترددون بالأخذ بما فى بلادهم وعصرهم من الآراء العامة؛ وأنهم ليسايرون راضين، وبدون مقاومة تيار العواطف والآراء الذى يجرف كل شىء حولهم. إنهم يسعون وراء العمل على إصلاح معاصريهم، ولكنهم لايعتزلونهم ولا ينفصلون عن مزاملتهم بحال من الأحوال. فلا غرو إن كان الرأى العام لايعاديهم أبداً، بل يساندهم ويحميهم، فمعتقداتهم تدين بما لها من سيطرة وتأثير، إلى ما بها من قوة ذاتية، كما تدين بهما كذلك إلى تلك القوة التى تستمدها من آراء الأغلبية.

وهكذا نرى أن الدين، باحترامه جميع النزعات الديمقراطية التى لاتتعارض معه فى شىء، وباستخدامه الكثير من هذه النزعات فيما فيه مصلحته الخاصة، يقوم بكفاح موفق، مع روح الاستقلال الفردى، وهى الروح التى يعدها ألد خصومه.

---

(١) لعل هذه إشارة إلى إشهار إفلاس الأب اليسوعى انطوان دولا فالت (١٧٠٧ - ١٧٦٢) الذى حدث سنة ١٧٥٨ واتخذ ذريعة لإلغاء جمعية الآباء اليسوعيين.

الفصـــل السادس

تقدم المذهب الكاثوليكى فى الولايات المتحدة

تعد أمريكا أعظم بلاد العالم ديمقراطية، وهى فى الوقت نفسه، كما تقول المصادر الجديرة بالثقة، البلاد التى يتقدم فيها هذا المذهب بخطًى سريعة؛ وهذا أمر لا شك يبدو مدهشاً لأول وهلة.

على أنَّا يجب أن نميز بين أمرين اثنين تمييزاً دقيقاً. فالمساواة تدفع الناس لأن يُكوّنوا آراءهم بأنفسهم؛ ولكنها من جهة أخرى، تبث فيهم فكرة أن السلطة التى تحكم المجتمع يجب أن تكون سلطة واحدة بسيطة نزيهة، لا تتحيز لأحد، ومن ثم صار الناس الذين يعيشون فى العصور الديمقراطية يميلون كل الميل إلى رفض الإيمان بكل سلطة دينية. ومع ذلك، فإن هم ارتضوا الإذعان لأية سلطة من هذا القبيل، آثروا أن تكون، على الأقل، سلطة واحدة غير متعددة، ومنسجمة مع نفسها. فالقوى الدينية التى لا ترجع كلها إلى مصدر واحد مشترك تكون بطبيعة الحال بغيضة إلى نفوسهم. وما أسهل أن يستقر فى أذهانهم أن عدم وجود دين واحد، ووجود أديان متعددة سيان.

هذا وإنا لنرى من الكاثوليك من يرتدون عن الإيمان فى الوقت الحاضر أكثر منهم فى أى عصر سلف؛ ونرى من البروتستانتيين من يصبأون إلى الكثلكة؛ فإن نحن نظرنا إلى هذه الكثلكة من الداخل خيل إلينا أنها تتناقص وتتدهور، على حين أنا إن نظرنا إليها من الخارج بدت لنا فى ازدياد وتقدم. وما تفسير ذلك بعزيز. فلم يعد الناس فى عصرنا يميلون إلى الإيمان إلا قليلاً، وإن هم آمنوا واعتنقوا ديناً ما فسرعان ما يستشعرون فى أنفسهم نزعة قوية كامنة تدفعهم، على غير تفطن منهم، إلى الأخذ بالعقيدة الكاثوليكية. فإن الكثير من مبادىء هذه الكنيسة ليدهشهم كل الدهشة، ومع ذلك فهم يشعرون بإعجاب خفى بنظامها وبقوانينها، وأن وحدتها العظيمة تسترعى انتباههم. فلو أن الكثلكة ابتعدت فى النهاية عن الخصومات السياسية التى سبق أن تولدت عنها هى ذاتها، لن يساورنى أدنى شك فى أن روح العصر نفسها التى تبدو ضدها، ستكون هى نفسها فى صفها تؤيدها. وأنها ستتقدم فوراً تقدماً فجائياً عظيماً.

فمن نقاط الضعف المعروفة فى العقل البشرى أنه يحاول التوفيق بين المبادىء المتناقضة

ويشترى المنطق بالسلام والاطمئنان. فلا غرو أن كان ثمة مفكرون - وسيظلون موجودين دائماً - بعد أن أخضعوا بعض معتقداتهم الدينية لسلطة ما، يسعون لتخليص الكثير من البعض الآخر منها، ويدعون عقولهم طافية تتأرجح على غير هدى بين الحرية والخضوع. وأرانى ميالاً إلى الاعتقاد بأن عدد هؤلاء المفكرين سيظل فى العصور الديمقراطية أقل منه فى غيرها، وأن اتجاه الخلف إلى أن ينقسموا قسمين اثنين سيزداد. فقسم منهما سيهجر المسيحية تمام الهجران، وقسم آخر يعود إلى الكثلكة.

الفصـــل السابـع

ميل الأمم الديمقراطية إلى القول بالحلول

سأشرح فيما بعد كيف يتجلى ميل الشعوب الديمقراطية الشديد إلى المعانى العامة، فى السياسة. أما الآن فحسبى أن أبين هنا أن أهم تأثير لهذا الميل فى الفلسفة.

لا نزاع فى أن مذهب الحلول قد تقدم فى عصرنا خطوات واسعة. ففى كتابات بعض الدول الأوربية آثار واضحة لهذا المذهب. فقد أدخله الألمان فى الفلسفة وأدخله الفرنسيون فى الأدب، فلا تخلو أغلب الكتب التخيلية الموضوعة فى فرنسا من بعض الآراء المستمدة من مذهب الحلول هذا، أو على لون منه، أو هى تكشف عن وجود نزعة من نزعاته فى مؤلفيها. ولا يرجع هذا فى نظرى إلى سبب عارض، بل يرجع إلى سبب دائم.

فكلما اقتربت أحوال الناس الاجتماعية فى المساواة، أو ازدادت أحوال كل امرىء اقتراباً من أحوال الآخرين حتى صار بذلك ضعيفاً وهيناً مثلهم – اعتاد الناس أن ينظروا إلى الشعب فى جملته، لا إلى المواطنين فرادى؛ فصاروا يغفلون شأن الأفراد، وينظرون إلى الجنس البشرى وحده. ففى مثل هذه الأوقات يتجه العقل إلى أن يشمل بنظرة واحدة طائفة كبيرة من أشياء شتى دفعة واحدة، ويحاول باستمرار أن يعلق عدة نتائج بسبب واحد؛ ولكن فكرة الوحدة تظل تستولى على فكره، ويظل هو يسعى وراءها دائماً، حتى إذا ما خيل إليه أنه عثر بها أخلد إلى الراحة قانعاً بما اعتقد. وإذا لم يكتف بأن يدرك أنه ليس فى الوجود سوى خالق واحد، وخليقة واحدة؛ بقى فى ضيق وحيرة من أمر هذا التقسيم المبدئى للأشياء، وواصل سعيه مختاراً وراء توسيع مفهوم فكرته هذه وتبسيطها، بأن يضع الله والكون بأكمله فى كل واحد شامل.

فإن كان ثمَّ نسق فلسفى يقول بأن جميع الأشياء التى فى هذا العالم، المادى منها وغير المادى، المرئى منها وغير المرئى، لا تعد سوى أجزاء شتى من كائن عظيم واحد، هو وحده الخالد وسط ذلك التحول الموصول يعتور كل مقوماته، استخلصنا من ذلك فى يسر وسهولة أن مثل هذا النسق، وإن كان قد يهدم فردية الإنسان، أو بالأحرى، لأنه يهدم هذه الفردية، سيكون له من المفاتن الخفية ما يستهوى أهالى البلاد الديمقراطية. فكل

عاداتهم فى التفكير تطوع لهم الأخذ بهذا النسق وتستميلهم إلى اعتناقه، فهو يستهوى خيالهم ويركزه فيه، ويغذى كبرياءهم، بينما يرضى خمول عقولهم وكسلها .

وفى اعتقادى أن مذهب الحلول هذا من أصلح النظم التى تفسر بها الفلسفة الكون بقصد تضليل العقل البشرى فى العصور الديمقراطية، فخليق بأولئك الذين يستمسكون بإيمانهم بعظمة الإنسان الحقيقية، أن يتضافروا ويكافحوا هذا المذهب .

الفصـــل الثـامن

أوحت المساواة بين الأمريكيين بأن قابلية الإنسان للكمال لا نهاية لها

توحى المساواة إلى العقل البشرى بأفكار عدة، ما كانت لتنشأ فيه من مصدر آخر، كما أنها تعدل معظم ما فيه من أفكار سابقة. ولنضرب لذلك مثلاً بفكرة قابلية الإنسان للكمال، لأنها من الأفكار الرئيسية التى يسهل على العقل إدراكها، ولأنها فى نفسها، نظرية فلسفية عظيمة تتجلى آثارها واضحة فى كل مكان فى ممارسة الناس شئونهم العملية.

فعلى الرغم من وجوه الشبه الكثيرة التى بين الإنسان والحيوان، فثم صفة واحدة خاصة به وحده، فإنه يتحسن ويترقى، أما الحيوان فلا – ولم يفت الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة من البداية، ففكرة القابلية للكمال قديمة إذن قدم العالم نفسه، ولم تنشأ عن فكرة المساواة، وإن كانت هذه قد أفاضت عليها صبغة جديدة.

فعندما ينقسم المواطنون فى مجتمع ما طبقات على أساس مراتبهم أو على أساس المهنة، أو النسب والأصل: وعندما يضطرون جميعاً إلى سلوك الطريق الذى ألقتهم فيه المصادفات الطارئة – عند ذلك يستقر فى ذهن كل امرىء أن أقصى حدود الطاقة البشرية ليست بعيدة عن متناوله؛ ولم يعد أحد يحاول أن يقاوم قانون مصيره المقدور عليه، ليس ذلك لأن الشعب الأرستقراطى ينكر إنكاراً تاما ما فى الإنسان من قدرة على التطور والترقى، ولكن لأنه (هذا الشعب) لا يعتقد أن هذه القابلية مطلقة لا حد لها ولا نهاية. فالأرستقراطيون يستطيعون أن يتصوروا إمكان التحسن والترقى، أما التغير فلا؛ ويدركون أن المجتمع قد يكون، فى المستقبل، فى حالة أفضل مما هو عليها، ولكن هذه الحالة لا تستلزم أن تكون مختلفة (بالضرورة) عما كان عليه من قبل فعلاً. فعلى حين أنهم يسلمون بأن البشر تقدموا حقاً خطوات واسعة، وبأن مجال التقدم لا يزال أمامهم واسعاً للمزيد، فإنهم يضعون سلفاً حدوداً معينة لتقدمه هذا، لا يستطيع أن يتعداها.

فالأرستقراطيون لا يعتقدون أنهم قد وصلوا إلى الخير الأسمى، أو إلى الحقيقة المطلقة (وأى شعب، بل، وأى فرد يبلغ به الخرق، أن يخطر ذلك بخياله) ولكنهم مقتنعون بأنهم

قد قاربوا هذه الدرجة من العظمة والمعرفة، التى تسمح بها طبيعة البشر القاهرة. وإذا كان كل شيء حول هؤلاء الأرستقراطيين جامداً لا يتحرك، خيل إليهم أن كل شيء قد أصبح مستقراً فى مكانه الملائم له؛ وعندئذ يخيل للمشترع أنه إنما يسن قوانين خالدة؛ ويخيل للملوك وللشعوب أنهم يقيمون آثاراً خالدة كذلك، وأن الجيل الحاضر قد اضطلع بمهمة توفر على الأجيال المقبلة هم العمل على تنظيم مصائرهم ومقدراتهم.

وكلما زالت الطبقات المغلقة، واقتربت طبقات المجتمع العادية بعضها من بعض؛ وكلما اختلفت العادات والآداب والعرف والقوانين من جراء اختلاط الناس الصاخب؛ وكلما ظهرت حقائق جدد، وزالت آراء قديمة وحلت محلها أخرى جديدة؛ كلما حدث ذلك كله قامت أمام العقل صورة كمال مثالى، وإن كانت صورة «مهزوزة» رجراجة غير محدودة دائماً. فلا غرو أن صارت تحدث كل لحظة تغييرات مستمرة على مشهد من كل إنسان. فمن الناس من يسوء مركزهم من جرائها، ولا يسعهم إلا أن يروا بكل وضوح أنه من المستحيل على أى شعب أو فرد مهما بلغ من الاستنارة والعلم، أن يدعى العصمة. وقد تتحسن أحوال آخرين من جرائها كذلك، فيستخلصون أن الإنسان فى جملته مزود بقدرة لا حد لها على التطور والتحسن، فيتعلمون مما يصيبهم من فشل وإخفاق أن أحداً لم يتوصل بعد إلى استكشاف الخير المطلق؛ أما ما يحرزونه من نجاح فيشجعهم على مداومة السعى وراء ذلك الخير المطلق والاقتراب منه. وهكذا يظل الإنسان فى سعى موصول، فيكبو دائماً وينهض دائماً. وكثيراً ما ينخدع -ويشعر بخيبة الآمال- ولكن همته لا تثبط ولا يعتريه وهن أو يأس، فيظل يتجه باستمرار نحو تلك العظمة التى لا حد لها، والتى يلمحها بشكل غامض عند نهاية الدرب الطويل الذى مازال على بنى الإنسان أن يسلكوه.

ومن العسير على المرء منا أن يصدق، كثرة عدد الحقائق التى تترتب على هذه النظرية الفلسفية التى تقول بأن قابلية الإنسان للكمال لا نهاية لها ولا حد. أو أن يصدق مدى ما لها من ذلك التأثير حتى على أولئك الذين يشتغلون بالأمور العملية ولم يشتغلوا قط بالتأمل والتفكير النظرى، يبدون أنهم يكيفون سلوكهم وأفعالهم بحسب هذه النظرية دون أن يدروا عنها شيئاً.

حدث أن صادفت ملاحاً أمريكياً، فسألته عن السبب فى أن سفن بلاده يراعى فيها ألا تعيش سوى وقت قصير، فأجابنى على الفور بأن فن الملاحة يتطور كل يوم تطوراً سريعاً، حتى إن خير سفينة لتصبح عديمة الجدوى بعد بضعة أعوام.

فمن هذه العبارة التى جاءت عرضاً على لسان ملاح غير متعلم، بشأن موضوع خاص، أدركت تلك الفكرة العامة المنسقة التى يجرى عليها شعب عظيم فى تسيير كل شئونه.

هذا، وتميل الأمم الأرستقراطية كل الميل إلى الإسراف فى تضييق مجال الترقى الإنسانى، وقابليته للكمال، على حين تميل الأمم الديمقراطية إلى توسيع هذا المجال ومد أطرافه إلى مدى قد يتجاوز الحد المعقول.

الفصـــل التاسع

مثل الأمريكيين ليس دليلاً على عدم مقدرة الناس فى الأمم الديمقراطية فى ميدان العلوم والآداب، ولا على عدم ميلهم إليها

يجب أن نعترف بأن العلوم العالية، لم تتقدم فى عصرنا إلا فى عدد قليل من الأمم المتحضرة، أقل مما تقدمته فى الولايات المتحدة، وأن عدداً ضئيلاً منها كذلك ظهر فيه من كبار الفنانين وفحول الشعراء ومشاهير الكتاب أقل ممن ظهروا فى الولايات المتحدة. هذا، وقد تأثرت طائفة كبيرة من الأوربيين بهذه الحقيقة، فخيل لهم أنها نتيجة طبيعية محتومة من نتائج المساواة بين الناس فى أحوالهم الاجتماعية، وتوهموا أنه لو حدث أن ساءت الديمقراطية ومؤسساتها الحرة بلاد العالم كلها لخفتت شيئاً فشيئاً تلك الأنوار التى يهتدى بها العقل البشرى، وانتكس الناس وعادوا يعيشون فى دياجير الجهل وظلماته.

وفى اعتقادى أن من يفكرون هذا التفكير يخلطون بين عدة أفكار يجب أن تظل منفصلة بعضها عن بعض، وأن يبحث كل منها على حدة. فقد خلطوا، على غير قصد منهم، بين ما هو ديمقراطى وبين ما هو أمريكى ليس إلا. فقد كان الدين الذى آمن به المهاجرون الأول الذين وفدوا على أمريكا، وورَّثوه أحفادهم وذراريهم، ديناً بسيطاً فى شعائره، صارماً كل الصرامة فى مبادئه، وخصماً عنيداً لكل المظاهر والرموز الخارجية، ولكل إسراف فى الحفلات الدينية، فهذا الدين يتعذر أن يكون نصيراً للفنون الجميلة، فهو يتشدد فى عدم الترخيص للناس بمطالعة كتب الأدب حباً فى المتعة العقلية. لقد انحدر الأمريكيون من شعب قديم مستنير كل الاستنارة، ووفدوا على بلاد جديدة، مترامية الأطراف، يستطيعون أن يتوسعوا فيها وينتشروا أيما انتشار، وأن يزرعوا من أراضيها ما يشاءون فى غير مشقة وجهد. فهذه حالة فذة لا نظير لها فى العالم. فلا غرو أن صار كل امرىء إذن يجد من التسهيلات ما لا يعرف فى أى بلاد أخرى، ليجمع ثروة، أو ليزيد على ما لديه منها. فالطمع وحب المكاسب طاغيان عليهم دائماً، فلا غرو أن صارت عقولهم، وقد منعت من الاستمتاع بملذات الخيال والفكر، تعنى دائماً بتوجيه الناس إلى السعى وراء المكسب واقتناء الثروات.

ولا يخفى أن فى الولايات المتحدة طبقات من التجار والصناع[١] مثل ما فى غيرها من بلاد العالم. ولكن ما لانجده فى غيرها أن يكون جميع الناس مشغولين بالصناعة والتجارة كلتيهما معاً وفى وقت واحد.

ومع ذلك فأنا مقتنع بأنه لو كان الأمريكيون وحدهم فى هذا العالم، وبالحريات والمعرفة التى نالها أجدادهم، وبالنزعات الملائمة لهم، لما عتموا أن استكشفوا أن التقدم فى استخدام نواحى العلوم التطبيقية لايمكن أن يستمر طويلاً من غير العناية بدراسة نواحيها النظرية، وأن الفنون كلها يعاون بعضها بعضاً على بلوغ الكمال، وأنهم مهما انهمكوا فى السعى وراء غرضهم الرئيسى الذى توجههم إليه رغباتهم، فإنهم لايلبثون أن يدركوا أن لامناص لهم من أن يتوقفوا من آن لآخر عن العمل لهذا الغرض، كى يتيسر لهم أن يدركوه آخر الأمر على وجه أفضل.

ومع ذلك فالميل إلى المتع العقلية أمر طبيعى، محبب إلى قلوب المتحضرين، فلا يعدم المرء أن يجد على الدوام فى الشعوب المتمدينة القليلة الإقبال على هذه المتع، عدداً من الناس يشاركون فيها، حتى إذا ما شعر الإنسان بهذا التشوق العقلى، لم يلبث أن يجد وسيلة لإشباعه.

ولكن الوقت الذى كان فيه الأمريكيون لايشعرون بحاجة إلى العلم إلا من حيث تطبيقاته العملية الخاصة بالفنون النافعة، وبالوسائل التى تجعل الحياة مرضية مريحة، كانت أوربا مقبلة كل الإقبال على العلوم والآداب، ومعنية بالبحث عن المصادر العامة للحقيقة، وبالعمل فى الوقت نفسه على تحسين كل ما يمكن أن يعين على زيادة متعة الإنسان وعلى سد احتياجاته الضرورية.

فعلى رأس الأمم المتحضرة المستنيرة فى الدنيا القديمة وجد سكان الولايات المتحدة أمة يمتون إليها بصلات وثيقة، من حيث الأصل وتشابه العادات، ووجدوا فيها من كبار رجال العلم ومن الفنانين البارعين والكتاب الممتازين من أتاحوا لهم الاستمتاع بروائع ما أنتجته العقول، من غير حاجة إلى أن يجشموا أنفسهم مئونة جمعها. فعلى الرغم من المحيط المترامى الأطراف لست أوافق من يقولون بانفصال أمريكا عن أوربا، فشعب الولايات المتحدة جزء من الشعب الانجليزى كلف استكشاف غابات الدنيا الجديدة. أما بقية الأمة، فإنهم يستمتعون بقسط أكبر من أوقات الفراغ، ولا يحتاجون إلى الكدح فى سبيل الرزق، فهم يستطيعون أن يوجهوا نشاطهم إلى شئون الفكر ويعملون على توسيع مجال العقل البشرى ومد آفاقه فى كل اتجاه.

فمركز الأمريكيين إذن مركز شاذ كل الشذوذ، لم يتح لأمة من الأمم الديمقراطية

---

(١) مما يجدر بالذكر هنا أن الحركة النقابية بدأت فى أمريكا حوالى سنة ١٨٢٥ بدأها روبرت أون (Robert Owen) الاشتراكى البريطانى (١٧٧١ - ١٨٥٨) وهو الذى أنشأ مستعمرة نيوهارمونى فى إنديانا.

أن تنعم بمثله، فأصل الأمريكيين البيوريتانى (المتطهر) المتشدد فى الدين وعاداتهم التجارية الغالبة عليهم، بل والبلاد نفسها التى استقروا فيها، التى يبدو أنها تبعد عقولهم عن موالاة الاشتغال بالعلم والأدب؛ وقربهم من أوربا الذى أتاح لهم أن يهملوا هذه النواحى من غير أن يرتكسوا فى البربرية -تلك الأسباب، وكثير غيرها، مما لا أستطيع أن أذكر سوى أهمها، وقد تضافرت بشكل عجيب على تركيز عقول الأمريكيين فى الأمور العملية المادية المحضة: فأهواء الأمريكى واحتياجاته وتعليمه، وكل شىء حوله- تعاونت كلها على اجتذاب سكان الولايات المتحدة إلى العناية بشئون الدنيا، فليس غير الدين وحده يحمله بين الحين والحين أن يوجه إلى السماء نظرة مشتتة عابرة، فينبغى ألا ننظر إلى جميع الأمم الديمقراطية ونحكم عليها أو لها بحسب مثال الشعب الأمريكى هذا، بل يجب أن نحاول أن ننظر إليها من حيث هى ذاتها.

من اليسير علينا أن نتصور أمة خلت من أية طبقة «مغلقة». ومن أى نظام متدرج لمراتب الناس ومقاماتهم، ومن كل طبقة أياً كانت- أمة لا يعترف فيها القانون لأحد بأية امتيازات تميزه على غيره. ويقضى فيها بتقسيم التركات تقسيماً سوياً بين الورثة، وفى الوقت نفسه تكون هذه الأمة، ومع ذلك كله، محرومة من المعرفة ومن الحرية. ليس تصور مثل هذه الأمة مجرد افتراض خيالى أجوف، فقد يجد حاكمها المستبد أن من مصلحته أن يقيم المساواة بين رعاياه ويدعهم فى الوقت نفسه جهلاء، حتى يتسنى له أن يستبقيهم عبيداً له أذلاء. إن شعباً ديمقراطياً من هذا الطراز لا يمكن أن يبدى أفراده مقدرة فى العلم أو ميلاً إليه وإلى الآداب والفنون، بل يحتمل كل الاحتمال ألا يتجلى فيه شىء من هذا أبدا. فقانون الوراثة نفسه يتكفل بتفتيت الثروات الجسام فى كل جيل حتى لا يكون ثمة مجال لأحد للحصول على ثروات جدد. إن الرجل الفقير الذى لا علم لديه، وحرم كل حرية، قد لا يخطر بباله أن ينهض، ويعمل على إحراز شىء من المال. أما الغنى، فقد تهبط به نفسه إلى مستوى الفقر من غير أن يعرف كيف يدافع عن نفسه. هذا وسرعان ما تقوم بين هذين المواطنين المتطرفين مساواة كاملة دائمة، وعندئذ لا يكون عند أحد الوقت ولا الميل لينهمك فى المتع الذهنية أو الأعمال العقلية بل يظل الناس سواء فى جهلهم، وسواء فى عبوديتهم.

وعندما أتصور بلداً ديمقراطياً من هذا الطراز أتخيل نفسى فى مسكن من تلك المساكن الخانقة المظلمة، حيث لا يلبث الضوء الباهت الذى يأتى من الخارج أن يخفت ويزول، فيغشانى جو ثقيل يجعلنى أتعيث فى الظلام الشامل، أتلمس طريقى إلى مخرج يؤدى إلى ضوء النهار. ولكن هذا كله يصدق، على الناس الذين أصبحوا بالفعل مستنيرين الذين ظلوا أحراراً -بعد أن ألغوا الحقوق الخاصة المتوارثة التى قضت بجعل الأملاك والثروات محصورة فى أيدى قلة من الأفراد أو فى أيدى طبقات معينة من طبقات المجتمع.

فإن كان الناس الذين يعيشون فى مجتمع ديمقراطى، مستنيرين، لم يلبثوا أن يستكشفوا

أن لا شيء يجبرهم على أن يكونوا مقيدين بمراكزهم الراهنة، ولا ثابتين جامدين فيها، وأن ليس ثمة ما يلزمهم بالرضى بحظوظهم الحالية. ومن ثم، فهم يسارعون إلى التفكير فى العمل على زيادة ثرواتهم. فإن كانوا أحراراً عمدوا إلى تنفيذ ما فكروا فيه، ومع ذلك فهم لاينجحون جميعاً بشكل واحد. حقاً إن التشريع لم يعد يمنح أحداً شيئاً من الامتيازات، ولكن الطبيعة ما زالت تمنحها. فلما كان التفاوت الطبيعى بين الناس كبيراً، فإن حظوظهم ستختلف وتتباين منذ اللحظات التى يأخذ فيها كل منهم فى استخدام جميع ما لديه من مواهب للحصول على الثروة.

هذا، وقانون الإرث يمنع قيام أسرات غنية، وإن كان لا يمنع قيام أفراد أغنياء؛ فهو يدفع بالمواطنين نحو مستوى عام، ولكنهم لايلبثون أن يعملوا على الخروج عنه باستمرار كذلك. وهكذا يزداد الناس تفاوتاً فى الثروة بمقدار انتشار التعليم والحرية بينهم.

حدث أن قامت فى عصرنا طائفة اشتهر أفرادها بالمواهب العالية وبالإسراف فى آرائهم، فاقترحت تركيز جميع الأموال فى أيدى سلطة مركزة واحدة، يكون عملها فى توزيع هذه الملكيات على الناس من جديد، بحسب ما لديهم من مواهب، وما بهم من جدارة[1]. وهذه لاشك طريقة للتهرب من مبدأ المساواة الكاملة الأبدية التى يبدو أنها تهدد البلاد الديمقراطية: ولكن ثمة علاج أبسط من هذا العلاج وأقل منه خطراً، وذلك أن نمتنع عن منح أى امتياز لأحد يفضله على سواه، وأن نعلم الناس جميعاً تعليماً واحداًونعترف باستقلال كل منهم استقلالاً يعادل استقلال سواه، ثم نتركهم جميعاً وشأنهم يقرر كل منهم مصيره بنفسه ويشكله بنفسه- عندئذ سرعان ما يتجلى فيهم التفاوت الطبيعى، وتنتقل الثروة من تلقاء نفسها إلى أيدى أقدرهم وأكفأهم.

وهكذا ستظل المجتمعات الديمقراطية الحرة تشتمل على طائفة من الأغنياء أو الميسورى الحال، المرتبطين بعضهم ببعض ذلك الارتباط الوثيق الذى كان بين أفراد الطبقة الأرستقراطية القديمة- بل سيكونون ذوى ميول متباينة، ولن يتاح لهم أبداً الاستمتاع بذلك الفراغ المضمون الكامل الذى كان يستمتع به أهل تلك الطبقات الأرستقراطية؛ إلا أنهم مع ذلك أكبر عدداً مما كانته تلك الطبقة فى أى يوم من الأيام. ولن يقتصر هؤلاء الأغنياء كل الاقتصار على العناية بشئون الحياة المادية وحدها، بل سيظلون قادرين على الاستمتاع بالملذات العقلية وبالأعمال العقلية، وإن كان استمتاعاً مختلف الدرجات، إنهم سيعنون بالاستمتاع بهذه المتع العقلية، لأنه إن صح أن العقل البشرى يميل، من ناحية، نحو كل ما هو محدود ومادى نافع، فإنه من ناحية أخرى يسمو بطبيعته نحو اللانهائى وغير المادى، ونحو الجميل والجليل، فالاحتياجات الفيزيقية الكثيرة تربطه بالأمور المادية، وبشئون هذه الدنيا، ولكن مادامت هذه الرابطة قد انحلت فسينهض العقل ويسمو من تلقاء نفسه.

---

(١) لعل المؤلف يشير هنا إلى سان سيمون وأنصاره (١٦٧٥ - ١٧٥٥) وإلى أنصار فوريه (Fourier) (١٧٧٩ - ١٨٣٧) الاشتراكيين المعروفين.

لا يزداد عدد الذين يستطيعون العناية بشئون الفكر زيادة كبيرة فحسب، بل إن الميل إلى المتع العقلية سيزداد كذلك ويظل يقترب شيئاً فشيئاً من أولئك الذين كانوا فى المجتمعات الأرستقراطية لا يجدون الوقت ولا القدرة على الاستمتاع بها. فإذا لم تعد ثم ثروات تالدة موروثة، ولا امتيازات تقوم على أساس الحسب والأصل، وإذ لم يعد المرء يستمد قوته إلا من نفسه وحدها -يتضح لنا السبب الرئيسى لتفاوت حظوظ الناس، وتباين ثرواتهم، يرجع كله إلى العقل وحده؛ فكل ما يساعد على تنشيط العقل ومد آفاقه أو تجميله يصبح فى الحال ذا قيمة عالية؛ وستتجلى فوائد التعليم بارزة حتى لأنظار الجماهير ممن لا يتذوقون روعة التعليم، فيعلون من قيمة نتائجه، ويبذلون الكثير من الجهد فى تحصيله.

ليس فى العصور الديمقراطية الحرة المستنيرة ما يدعو إلى انعزال الناس بعضهم عن بعض، ولا إلى استبقائهم جامدين فى مراكزهم، بل هم يرتفعون عليها ويهبطون دونها بسرعة عظيمة، فجميع الطبقات متصلة بعضها ببعض من جراء قرب كل منها من الأخرى[1] فأعضاؤها يتصلون، ويتحاكون ويتنافسون ويتحاسدون، مما يوحى إلى الشعب بكثير من الأفكار والرغبات التى لم تكن تخطر لهم ببال من قبل، لو أن الطبقات كانت ثابتة والمجتمع جامداً لا حركة فيه ولا نشاط. ففى مثل هذه الأمم لا يعد الخادم نفسه أبداً غريبا كل الغرابة عن مسرات سيده وأفعاله، ولا الفقير من مسرات الغنى وأعماله؛ ويحاول سكان الريف أن يتشبهوا بسكان الحضر، وسكان الإقليم بسكان العاصمة. فليس ثمة أحد يسمح لنفسه بسهولة أن يقصر كل همه على مشاغل الحياة المادية وحدها، بل نجد أدنى صانع يلقى نظرة خاطفة على شىء من ميادين الفكر السامية؛ فالناس لا يقرأون بنفس الروح ولا بنفس الطريقة التى كان يقرأ بها إخوانهم فى البلاد الأرستقراطية، فدائرة القراء تظل تتسع باستمرار حتى تشمل الشعب بأسره.

وحينما يشرع الجمهور فى الاهتمام بشئون الفكر يتبين له أن التفوق فى ناحية منها وسيلة ناجحة للحصول على الجاه والقوة والثروة والمال فسرعان ما يتجه هذا الطموح القلق الذى ولدته المساواة إلى هذا الاتجاه مثل غيره، ويزداد عدد الذين يعنون بالعلوم والآداب والفنون زيادة كبيرة، ويزخر عالم العقل بنشاط جم، فيحاول كل امرىء أن يشق لنفسه طريقاً فيه ويجتذب إليه أنظار الناس، وعندئذ يحدث شىء شبه ما هو حادث فى الولايات المتحدة من الوجهة السياسية، قد يكون الكثير مما ينجز ناقصاً قاصراً، ولكن المحاولات التى تتم كثيرة لا حصر لها. ومع أن نتائج الجهود الفردية ضئيلة فى العادة، فجملة نتائجها الكلية كبيرة دائماً.

فليس صحيحاً إذن ما يقال من أن الناس الذين يعيشون فى العصور الديمقراطية لا يحفلون بطبيعتهم بالعلوم ولا بالفنون والآداب. ولكن يجب أن نعترف بأنهم إنما يوالونها ويتعهدونها على طريقتهم؛ وفيها يتجلى ما فيهم من عيوب وما بهم من محاسن.

---

(١) انظر الخطاب الشهير الذى ألقاه رويه كولار Royer Collard السياسى الفرنسى، فى مجلس النواب الفرنسى عن الديمقراطية بمناسبة قانون المطبوعات.

الفصـــل العاشــر

الأمريكيون يؤثرون دائماً
العــلوم العمــلية على النظــرية

إن كانت الجماعات والمؤسسات الديمقراطية لا تعرقل تقدم العقل البشرى، فليس من شك فى أنها تؤثر أن توجهه وجهة معينة على أخرى. ومع ذلك فجهودها عظيمة، على الرغم من هذا التحديد، فلا غرو إن أنا تلبثت هنا برهة أدرسها فيها.

سبق أن أتيحت لنا الفرصة، عند الكلام على منهج الأمريكيين الفلسفى، فأبدينا عدة ملاحظات يجدر بنا أن نفيد منها هنا.

فالمساواة تولد فى كل إنسان الرغبة فى أن يكون مستقلاً بنفسه فى الحكم على ما يريد أن يبدى رأيه فيه، وتجعله ميالاً إلى الواقع المحسوس فى كل الأمور؛ مستهيناً بالتقاليد والشكليات، ومحتقراً لشأنها. وستتجلى لنا كل هذه النزعات العامة التى تكاد تكون فطرية فى موضوع هذا الفصل.

إن الذين يعملون فى ميدان العلوم فى البلاد الديمقراطية يخشون دائماً أن يضلوا طريقهم فى متاهات «الطوبيات» والتأملات الخيالية، ولذا نراهم يسيئون الظن بالنظم وبالإنسان ويؤثرون أن يلتزموا، ما استطاعوا، الواقع والحقائق، وأن يدرسوها مباشرة بأنفسهم. ولما كانوا يحرصون كل الحرص على ألا يتأثروا بقوة اسم أى إنسان من بنى جنسهم أو بشهرته؛ صاروا لا يميلون إلى الاعتماد على أحد ولو كان حجة فى موضوعه. فعلى العكس من ذلك، تراهم لا يألون جهداً فى البحث عن نقاط الضعف فيما يقول. فليس للسوابق العلمية أى وزن عندهم، ولا هم يظلون أبداً يحفلون طويلا بدقائق النظريات والمدارس الفلسفية، ولا هم يميلون أن يخدعوا أنفسهم بالألفاظ الرنانة، بل يتغلغلون ما استطاعوا فى صميم النقاط الرئيسية للموضوع الذى هم بصدده، ويفضلون أن يعبروا عنها بلغة التخاطب المعهودة لكل الناس. فالبحوث العلمية إذن تنتهج طريقاً آمن من غيره وأكثر حرية، وإن لم يبلغ من السمو ما بلغه غيره.

ويبدو لى أن العقل يقضى بتقسيم العلوم ثلاثة أقسام :

قسم يشمل المبادىء النظرية البحتة والمبادىء المحدودة التى لم يسبق أن طبقت ، أو التى لايزال تطبيقها بعيداً .

ويشمل القسم الثانى الحقائق العامة التى تؤدى مباشرة ومن أقصر طريق ، إلى نتائج عملية وإن كانت هذه الحقائق من قبيل النظريات البحتة .

أما القسم الثالث فيشمل طرائق التطبيق ووسائل التنفيذ .

وكل قسم من أقسام العلم المختلفة هذه ممكن تعهده وموالاة دراسته ، وإن كانت الخبرة والعقل تدلان على أنه لايتسنى لقسم من هذه الأقسام أن يزدهر طويلاً ، إذا ما انفصل انفصالاً تاماً عن القسمين الآخرين .

ويعنى الأمريكيون كل العناية بالقسم العملى المحض من هذه الأقسام وبالناحية النظرية التى يستلزمها التطبيق المباشر ، وهم يبدون هنا دائماً قدرة عقلية محددة وواضحة ، حرة ، مبتكرة ، وعميقة . ومع ذلك فإنا لانكاد نجد أحداً فى الولايات المتحدة كلها يكرس جهوده للناحية النظرية الخالصة المجردة من نواحى المعرفة البشرية ، والأمريكيون مسرفون هنا إسرافاً كبيراً ، نجده ، على ما أعتقده ، فى جميع البلاد الديمقراطية ، ولكن بشكل أقل مما فى أمريكا .

ولايخفى أن لاشىء ألزم للاشتغال بالعلوم العليا ، وبالنواحى السامية من العلم ومن التأمل والتفكير . وليس شىء أقل صلاحاً للتأمل من نظام المجتمعات الديمقراطية الداخلية . فإنا لانجد فيها ما نجده عند الشعوب الأرستقراطية من حيث وجود طبقة كبيرة من الناس تتسم بالثبات والاستقرار من أجل ثرائها ، وطبقة أخرى جامدة لاتتقدم ، بسبب ما اعتراها من يأس من تحسين أحوالها . ذلك ، على حين أن كل امرىء فى البلاد الديمقراطية فى حركة موصولة . فمنهم من يسعى وراء القوة والسلطان ، ومنهم من يسعى وراء المال . فأين يتسنى لنا وسط هذه الحركة العامة ، واصطراع المصالح المتضاربة ، ووسط ذلك السعى المتواصل وراء الثروة والمال -أن نجد ذلك الهدوء الذى لاغنى عنه للتفكير العميق؟ كيف يستطيع العقل أن يركز قوته فى نقطة واحدة ، وكل ما حوله فى حركة دائبة ، والإنسان نفسه قد يكتسحه التيار الجارف الذى يجرف كل شىء .

ولكى ينبغى أن نفرق بين ذلك النوع من الحركة الدائمة الذى تتميز به الديمقراطية المسالمة الهادئة (القائمة على أساس وطيد) وبين تلك الحركات الصاخبة الثورية التى تكاد تصاحب دائماً مولد كل مجتمع ديمقراطى ونشأته ، فعندما يحدث انقلاب عنيف بين ظهرانى شعب بلغ فى ميدان الحضارة شأناً عظيماً ، كان لامناص من هذا الانقلاب من أن يحرك

عواطف الناس وأفكارهم ويطلقها فجأة[١] . ويصدق هذا -بوجه خاص- على الثورات الديمقراطية التى تحرك جميع طبقات الشعب دفعة واحدة . وفى الوقت ذاته تولد فى نفس كل عضو من أعضاء المجتمع مطامع قوية وآمالاً واسعة لاتحد ، لقد تقدمت فرنسا فى أثناء الثورة الفرنسية خطوات عجيبة فى العلوم « المضبوطة » فى نفس الوقت الذى كانت تعمل فيه على القضاء على ما تبقى من آثار مجتمعها الإقطاعى السالف ، ومع ذلك يجب ألا يعزى هذا التقدم الفجائى فى العلم إلى الديمقراطية ، بل إلى تلك الثورة المنقطعة النظير التى صاحبت نمو الديمقراطية . فما حدث فى ذلك الوقت كان حدثاً خاصاً وليس من الحكمة فى شىء أن نتخذه دليلاً على وجود قاعدة عامة[٢] .

لاتحدث الثورات الكبرى فى البلاد الديمقراطية أكثر مما تحدث فى غيرها من البلاد ، بل إنى لأميل إلى القول بأن حدوثها فيها أقل . ولكن ثم حركة صغيرة تسود تلك الجماعات الديمقراطية ، وهى حركة متعبة ، من نوع تلك الحركات الدائمة التى تجرى بين الناس المتزاحمين بالمناكب فتضايق العقل وتعكره ، من غير أن تستثيره وتسمو به إلى مستويات عليا .

فمن النادر أن ينهمك الناس الذين يعيشون فى المجتمعات الديمقراطية فى التأمل والتفكير النظرى . بل إنهم لايولونه بالطبع إلا قليلاً من الاحترام والتقدير . فأحوال المجتمع الديمقراطى ومؤسساته تدفع الكثرة الكاثرة من السكان إلى أن يظلوا يعملون باستمرار ، ولا يخفى أن عادات العقل التى تناسب الحياة العملية النشيطة لاتصلح دائماً لحياة التأمل والتفكير . فرجل العمل والنشاط كثيراً ما يضطر إلى أن يقنع بأن يحصل على خير ما يستطيع الحصول عليه ، لأنه لن يتمكن من إنجاز عمله ، إن شاء أن يصل بكل دقيقة من دقائقه ، وبكل تفصيل من تفاصيله إلى مرتبة الكمال ؛ فأمامه ظروف تجعله يستند إلى آراء وأفكار لايجد لديه الوقت الكافى لتحقيقها وسبر أغوارها ، وكثيراً ما يجد أن الفكرة الملائمة التى يستخدمها فى عمله ، تعينه على إنجاز هذا العمل أكثر مما تعينه دقتها العلمية الصارمة ، ذلك إلى أنه سيجد فى النهاية أن ما يخاطر به فى استناده فى عمله إلى بضعة مبادىء زائفة ، لأقل من مخاطرته بإنفاق وقته فى التحقق من أن كل مبدأ من المبادىء التى يسير عليها فى عمله ، صحيح . فالعالم لايسير بالأدلة الطويلة ، أو التى فيها علم واسع غزير ، فالنظرة السريعة إلى حقيقة جزئية ، والدءوب فى دراسة شهوات الجماهير ، المتغيرة العابرة ، وأحداث الساعة ، وفن استغلالها والإفادة منها -هى التى تتحكم فى شئون هذا العالم .

---

(١) يذكرنا هذا بما حدث فى القرن السابع عشر عندما قامت حركة الإصلاح الدينى فى أوربا وظهر طوفان من الرسائل والكتب الدينية ولاسيما أن فن الطباعة كان قد ظهر فى الوجود . ويذكرنا كذلك بما حدث قبيل الثورة الفرنسية قرب انعقاد مجلس الطبقات ، وفى أثناء الثورة نفسها فقد نشرت آلاف من الرسائل « وكراسات العرائض » المشهورة .

(٢) لعل المؤلف يشير إلى أمثال لافوازيه مؤسس علم الكيمياء الحديث ، والذى قتل فى أثناء الثورة الفرنسية ١٧٩٤ والمركيز جوفروا Joseph d Abbans (١٧٥١ - ١٨٣٢) الذى يعزو إليه الفرنسيون أنه أول من اخترع السفن البخارية وأجراها فى نهر الرون سنة ٧٨٣ . ولكن أحداث الثورة الفرنسية عاقته عن المضى فى عمله ، ومن ثم كان فلطن Fulton الأمريكى أول من نجح فى تسيير سفينة بالبخار على نهر السين سنة ١٨٠٢ ثم فى نهر هدسن بأمريكا .

ففى العصور التى تتميز بالعمل والنشاط، يتجه الناس عادة إلى المغالاة بقيمة الخواطر السريعة، والأفكار الضحلة السطحية؛ على حين أنهم يقللون أكثر مما ينبغى من شأن أعمال العقل البطيئة العميقة. فرأى الجمهور هذا يؤثر فى أحكام المشتغلين بالعلم والعاملين على النهوض به، ويجعلهم يعتقدون أن فى استطاعتهم أن ينجحوا من غير حاجة إلى التأمل الطويل، أو هو يبعدهم عن الدراسات التى يتطلبها.

هذا ولدراسة العلم طرق عدة. فقد نجد فى كثيرين ممن يتوفرون على دراسته، ميلاً أنانياً تجارياً، وصناعياً، إلى ما يصل إليه العقل من كشوف، فيجب ألا نخلط بين هذا الميل وبين تلك الشهوة العارمة، النزيهة البعيدة عن المنافع الشخصية، والتى تضطرم فى نفوس فئة قليلة من الناس. فالرغبة فى استغلال المعرفة شىء، والرغبة الخالصة فى مجرد الإلمام بها لذاتها شىء آخر. هذا، وإنى لا يساورنى أى شك فى أنه قد تنشأ فى نفوس بعض الناس، وفى فترات متباعدة، محبة للحق، قوية، فياضة، لا ينضب معينها، تعتمد على نفسها وحدها، وتظل تؤتى ثمارها باستمرار، من غير أن يأتى عليها يوم ترضى فيه تمام الرضى، فمحبة الحقيقة المتوقدة هذه، المعتزة بنفسها، المنزهة عن كل منفعة شخصية، هى التى تسمو بالناس إلى مصادر الحق المجرد التى يستمدون منها أمهات أفكارهم.

فلو كان هدف «بسكال»[1] لا يعدو إحراز الثروة؛ بل لو كان حب الشهرة وحده هو الذى يحفزه، لما تصورت أبداً أنه كان يستطيع تعبئة جميع قواه العقلية كما فعل، ليقف على أخفى أسرار سنن الله الكونية. وعندها أرى أنه قد باعد بين نفسه وبين كل هموم الحياة، ليفرغ لتلك البحوث التى أولع بها، ثم يقطع النياط التى تربط جسمه بالحياة، ويموت بالشيخوخة، قبل أن يبلغ سن الأربعين -عندما أرى ذلك كله يستولى علىَّ الذهول، وأعترف بأن الحافز الذى دفعه إلى بذل ما بذل من جهود جبارة لا يمكن أن يكون حافزاً عادياً مثل سائر الحوافز.

هذا، ولسوف يظهر لنا المستقبل إن كان من الجائز أن تكون تلك الشهوات النادرة والمثمرة فى وقت واحد، فى البلاد الديمقراطية وتنمى فيها بسهولة ويسر، كما توجد وتنمى فى البلاد الأرستقراطية، أما أنا فلابد لى من أن ألبث طويلاً قبل أن أصدق هذا.

ولما كانت الطبقة التى توجه الرأى العام فى البلاد الأرستقراطية، وتفيض عليه صبغته المميزة له، والتى بيدها زمام الإدارة فيها أيضاً قد أقيمت بصفة دائمة ووراثية على رأس الجماعة: فلا غرو أن صارت لديها فكرة عالية عن نفسها وعن الإنسان. فهى مولعة بأن تخترع للشعب ألواناً من المسرات الباهرة، وبأن تقيم له أغراضاً باهرة يتجه إليها. هذا، وليس من شك فى أن الأرستقراطيين كثيراً ما يرتكبون أفعالاً استبدادية ظالمة كل الظلم،

---

(١) بليز بسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) الفيلسوف الفرنسى والعالم الرياضى المعروف.

وبعيدة عن الإنسانية كل البعد، ولكن من النادر أن تخطر لهم أفكار دنيئة، فهم يبدون نوعاً من ذلك الازدراء المستعلى للملذات الوضيعة، حتى ولو كانوا هم أنفسهم ممن ينهمكون فيها، مما أدى إلى رفع روح الشعب العامة، ففى العصور الأرستقراطية تتكون عند الناس آراء تؤثر فى الذين يتعهدون العلم ويوالون دراسته. كما تؤثر فى المجتمع كله، وتيسر للعقل أن يندفع اندفاعه الطبيعى إلى أسمى مستويات التفكير، وإنها لتعده لحب الحقيقة حباً جليلاً يكاد يكون قدسياً.

يتجه المشتغلون بالعلم فى هذه العصور إذن صوب العناية بنواحيه النظرية، بل قد يحدث أنهم كثيراً ما يبدون احتقاراً أخرق كل الخرق لممارسة النواحى العملية منه، قال بلوتارك: كان أرشميدس ذا نفس سامية كل السمو، فقد أبى كل الإباء أن ينزل ليكتب أية رسالة أو كتاب فى إنشاء تلك الآلات الحربية، وإذا كان يرى أن اختراع الآلات وتركيبها، وجميع الفنون التى ترمى إلى غرض عملى نافع، يجب أن تعد فى جملتها خبيثة دنيئة، ووسيلة من وسائل كسب المال. فقد أنفق مواهبه ووقته فى الكتابة فى الأمور التى لايشوب ما فيها من جمال ومن دقة الفن شىء من الحاجة والضرورة. وهكذا كما لايخفى هدف العلوم فى البلاد الأرستقراطية، وإنه لبعيد كل البعد أن تكون هذه هى الحال فى البلاد الديمقراطية.

فمعظم الناس الذين تتكون منهم هذه الأمم (الديمقراطية) نهمون كل النهم فى سعيهم وراء اللذات الحسية التى فى متناولهم. ولما كانوا غير راضين دائماً عن المراكز التى يشغلونها، وكانوا أحراراً دائماً فى مغادرتها، صاروا لايفكرون فى شىء سوى الوسائل التى تمكن لهم من أن يغيروا حظوظهم، أو يزيدوا ثروتهم. فكل طريقة فى نظر من تميل عقولهم هذا الميل، جديدة وتؤدى إلى الثروة بطريق أقصر، فكل آلة توفر العمل، وكل أداة تقلل من تكاليف الإنتاج ونفقاته، وكل كشف ييسر الاستمتاع بالملذات أو يزيدها - كل شىء من هذه يبدو لهم خير مجهود يبذله العقل البشرى. وهذه البواعث نفسها هى التى تحفز الأمم الديمقراطية إلى التعلق بالدراسات العلمية، وإلى فهمها واحترامها، فالعلم فى العصور الأرستقراطية مطلوب منه أن يزود الناس بالمتع العقلية بوجه خاص. أما المطلوب منه فى العصور الديمقراطية أن يزودهم بالملذات الحسية.

فكلما كانت الأمة أكثر عراقة فى الديمقراطية، وأعظم استنارة، وأكبر حرية، ازداد فيها عدد الذين يناصرون عباقرة العلم، وازدادت الكشوف التى يصح أن تستغل مباشرة فى الصناعات الإنتاجية، وتفيض على كاشفيها الثراء، وتكسبهم بعد الصيت، بل و«السلطة» كذلك. ذلك لأن الطبقة العاملة فى البلاد الديمقراطية تشترك فى حكم البلاد وفى إدارة شئونها العامة، فحرى بمن يخدمونها أن ينتظروا منها كل تكريم زيادة على ما يتوقعونه من جزاء مالى.

ففى الجماعة المنظمة مثل هذا التنظيم يسهل علينا أن نتصور أن العقل البشرى يسهل توجيهه، وعلى غير وعى منه إلى إغفال الجوانب النظرية، على حين أنه يندفع، على العكس من ذلك، بكل همة ونشاط لانظير لهما وراء رعاية النواحى التطبيقية، أو على الأقل، إلى ذلك الجزء من العلوم النظرية الذى لاغنى عنه لمن يقومون بتطبيقها عملياً، فعبثاً ما تحاول نزعة فطرية فى الإنسان الارتفاع بالعقل البشرى إلى المجالات السامية. فالمصلحة تهبط به إلى المجال الوسط، حيث يتيسر له أن يبدى كل ما فيه من نشاط قلق، ويأتى بالعجب العجاب، فهؤلاء الأمريكيون أنفسهم الذين لم يستكشفوا لنا قانوناً عاماً واحداً من قوانين الميكانيكا قد أدخلوا فى الملاحة آلة جديدة سوف تغير وجه العالم[1].

إنى لأبعد الناس عن القول بأن الأمم الديمقراطية التى فى عصرنا كتب عليها أن تشاهد انطفاء تلك الأضواء الباهرة التى تستضىء بها عقول الناس، ولا حتى بان هذه الأمم لن تأتينا بقبس جديد. ففى العصر الذى وصل إليه العالم الآن، وبين ذلك العدد الكبير من الأمم المتعلمة التى تستثيرها باستمرار حمى الصناعات الإنتاجية، لابد أن تبعث تلك الروابط، التى تربط مختلف أقسام العلم بعضها ببعض -تبعث الدهشة فى كل من يلاحظها؛ فإن كان الميل إلى العلوم العملية ميلاً مستنيراً، وجب ألا يدفع الناس إلى إغفال العلوم النظرية. فلا مفر لنا فى المحاولات الكثيرة التى تبذل فى تطبيق ما يجرى كل يوم من التجارب العديدة من أن نصل إلى كثير من القوانين العامة وإظهارها إلى حيز الوجود، وبذلك تكثر الكشوف العلمية على الرغم من قلة كبار المخترعين.

وزيادة على ذلك فإنى أومن كل الإيمان بالمهن العلمية العالية. فإن كانت الديمقراطية لاتحمل الناس، من جهة، على الاشتغال بالعلم للعلم- فإنها، من جهة أخرى، تزيد عدد الذين يشتغلون به زيادة كبيرة، وليس معقولاً ألا يظهر من بين هذا العدد الضخم، الفينة بعد الفينة، عبقرى نظرى لايحفزه سوى حب الحق وحده. وليس من شك فى أن مثل هذا العبقرى سيغوص إلى أعماق الطبيعة يكتنه أسرارها، مهما كانت روح عصره، وروح بلاده، فهو ليس بحاجة إلى معاونة أحد على السير فى الطريق الذى اختار، بل حسبه ألا يجد فيه ما يعوقه. فكل ما أبغى أن أقوله، هو أن دوام التفاوت بين الناس يدفعهم إلى الاقتصار على الاشتغال بالبحوث العقام المستعلية فى الحقائق المجردة، على حين أن الأحوال الاجتماعية، والمؤسسات الديمقراطية تجعلهم لايتطلبون من العلوم سوى تطبيقاتها المباشرة النافعة، وهذه نزعة طبيعية ولا مناص منها، فمن قبيل الفضول أن نلم بها، ولكن من الضرورى أن نشير إليها هنا.

---

(١) يشير المؤلف إلى استخدام البخار فى تسيير السفن، ويعزى استكشاف ذلك إلى روبرت فلطن (Robert Fulton) الأمريكى(١٧٦٥ - ١٨٨٥) الذى أشرنا إليه فى تعليق سابق فى الجزء الأول، وفى هامش سابق من هذا الجزء.

فلو أن الذين وكل إليهم فى عصرنا الحاضر إرشاد الشعوب وتوجيهها، أدركوا هذه النزعات النظرية إدراكاً واضحاً، ومن بعد -وهى نزعات سرعان ما تصبح قوية لاتقاوم- لعرفوا أن المواطنين فى البلاد الديمقراطية لايسعهم، بما لديهم من الحرية والمعرفة، إلا أن يعملوا على تحسين نواحى العلوم المتصلة بالصناعة والأعمال فينبغى أن نعمل من الآن على توحيد جهود السلطات الرسمية جميعاً وتكتيلها لمناصرة التعلم والدراسات العالية فيه وعلى تقوية ما فى الناس من شهوات نبيلة له. ولا مندوحة لنا فى العصر الحاضر من أن نوجه العقل البشرى إلى الاشتغال بالدراسات النظرية، لأنه يتجه من تلقاء نفسه إلى التطبيقات العملية. فبدلاً من أن يوجه باستمرار إلى دراسة النتائج الثانوية وفحصها فحصاً دقيقاً، فمن الخير إبعاده عنها أحيانا، كى نسمو به فى النهاية إلى التأمل فى الأسباب الأولى.

لقد دالت حضارة روما القديمة على أثر غزوات البرابرة لبلادهم وفتحها، وقد يوحى إلينا هذا بأن الحضارة لاتنهار إلا بمثل هذا السبب. لو حدث وانطفأ سراج الحضارة الذى نسترشد به الآن لبدأ بأن يخبو شيئاً فشيئاً ثم ينطفىء من تلقاء نفسه، فالاقتصار على مجرد التطبيق العملى، والتشبث به، قد يؤدى إلى إغفال العناية بالنظريات والمبادىء إغفالاً تاماً، حتى إذا ما نسيت هذه تماماً أدى إلى إساءة استخدام الطرق المستمدة منها: ولما لم تعد ثمة طرق جديدة تخترع، فسيظل الناس يطبقون من غير فكر، ومن غير فن، عمليات علمية أصبحوا لايفهمونها.

لما وصل الأوربيون[1] لأول مرة إلى الصين من ثلاثمائة سنة مضت وجدوا فيها جميع الفنون، أو جلها، وقد وصلت إلى درجة طيبة من الكمال، فاستولى عليهم الدهش أن يروا شعباً بلغ تلك الدرجة من الرقى، ثم يقف عندها ويجمد. هذا، وقد وجدوا فى عصر آخر متأخر عن ذلك العصر، آثاراً لبعض فروع عالية من العلم ضاعت. لقد كانت تلك الأمة جميعها مشغولة بالصناعات الإنتاجية، وما زال الجزء الأعظم من التطبيقات العملية محفوظاً لديها، أما العلم نفسه فلم يعد له وجود فيها. وهذا مايفسر لنا أسباب هذا الغموض الغريب الذى منيت به عقول ذلك الشعب، فقد نسى الصينيون، باقتفائهم آثار أجدادهم، الأسباب التى كان يستهدى بها هؤلاء الأجداد، فظلوا يستخدمون القوانين والصيغ العلمية دون أن يجشموا أنفسهم مئونة أن يسألوا عن معناها، ولذا احتفظوا بالأداة، من غير أن يحتفظوا بفن تعديلها أو تجديده مما جعلهم يفقدون القدرة على التغيير حتى صار أمر ترقيتهم مستحيلاً، فاضطروا أن يظلوا يحاكون أجدادهم فى كل وقت، وفى كل ناحية؛ مخافة أن يضلوا ويتورطوا فى الظلام الحالك إن هم حادوا قيد أنملة واحدة عن

---

(١) وصل ماركو بولو إلى الصين فى القرن الثالث عشر؛ فقد اصطحبه معهما أبوه نيكولو وعمه ماتيو التاجران البندقيان فى رحلتهما الثانية إليها حيث بقوا فى خدمة عاهلها المغولى قبلاى خان سبع عشرة سنة (١٢٧١ - ١٢٨٨) ثم عادوا إلى أوروبا سنة ١٢٩٣. وفى أواخر القرن السادس عشر عاد البرتغاليون إلى الاتصال بالصين.

الطريق الذى رسمه لهم السلف، حتى كاد نهر المعارف البشرية عندهم أن يجف، ومع أنه ظل يجرى فلم تعد له القدرة على الفيضان، بل ولا حتى على أن يغير مجراه .

وعلى الرغم من هذا كله ظلت الصين تحيا فى هدوء عدة قرون، واتخذ الغزاة الذين فتحوها عادات أهلها، ثم سادها النظام والاستقرار . وتجلى فى كل ناحية من نواحيها نوع من الازدهار المادى، لقد كانت الثورات فيها نادرة . وكادت الحرب أن تكون غير معروفة فيها .

فمن المغالطة إذن أن نخدع أنفسنا ونظن أن البرابرة مازالوا بعيدين عنا، فإن سمحت بعض الشعوب لغيرها بأن تنتزع مصابيح الحضارة من أيديها، فثم شعوب أخرى أطفأت حضارتها بنفسها وداستها بالأقدام .

الفصل الحادى عشر

الروح التى يتعهد بها الأمريكيون الفنون

لو أنى حاولت أن أشرح للقراء كيف أن اعتدال ثروات الناس العام، وعدم وجود ثروات فائضة تزيد على الحاجة، عندهم، وأضحت رغبتهم العامة فى رفاهة العيش وراحته، وما يبذله كل منهم من جهود متصلة لتوفير هذه الراحة لنفسه - لو أنى حاولت أن أبين كيف جعلت هذه الأمور ميل الناس لما هو نافع، يطغى فى قلوبهم على حب الجميل، لأضعت وقتى ووقتهم سدى، فالأمم الديمقراطية التى نجد فيها هذه الأمور ستتجه إذن نحو رعاية الفنون التى تعاون على جعل الحياة ميسرة سهلة، وتؤثرها على غيرها من الفنون التى ترمى إلى جعلها جميلة فحسب؛ فهى تفضل عادة النافع على الجميل، وتطلب من الجميل أن يكون نافعاً.

ولكنى مع ذلك سأسير إلى أبعد من هذا المدى، فبعد أن أفرغ من شرح أولى هذه السمات، سأعود وأشرح الكثير غيرها بإيجاز.

فكثيراً ما يحدث فى العصور التى تسودها الامتيازات، أن تصبح الفنون كلها تقريباً امتيازاً، وتصبح كل مهنة قائمة بذاتها منفصلة عن سواها، فلا يسمح لكل من شاء، أن يلتحق بها، وحتى عندما تكون الصناعات الإنتاجية حرة، فثبات أخلاق الأمم الأرستقراطية الطبيعى، سرعان ما يؤدى بجميع أولئك الذين يمارسون فناً معيناً، إلى أن ينفصلوا عن غيرهم ليكونوا لهم طبقة أو طائفة قائمة بذاتها، كل أعضائها يعرفون بعضهم بعضاً، فلا يلبث أن ينشأ بينهم رأى عام ونوع من الكبرياء والاعتزاز بالطائفة، ففى كل طائفة أو نقابة صناعية من هذا القبيل لايكون هم كل صانع أن يجمع ثروة خاصة فحسب، بل أن يعمل على أن يحافظ على سمعته كذلك. فهو ليس محكوماً بمصلحته الشخصية وحدها دون غيرها، بل تحكمه مصلحة عملائه أيضاً، ومصلحة الطائفة التى ينتمى إليها. وهى مصلحة تنحصر فى وجوب أن يكون ما ينتجه الصانع على خير ما يستطاع من الدقة والإتقان. ففى العصور الأرستقراطية لايعدو الهدف الذى ترمى إليه الفنون إذن تجويد ما يصنع إلى أقصى حد ممكن، وليس أن يتم بأقصى سرعة، ولا أن يباع بأرخص سعر.

أما إن كانت كل مهنة، على العكس من ذلك، مباحة للجميع يدخلها من يشاء

ويغادرها متى يشاء باستمرار، فقد أصبح أعضاؤها، غرباء بعضهم عن بعض، ولا هم يكترثون بعضهم بشئون بعض، بل ولا يكادون، لكثرتهم، أن يرى أحدهم الآخر، فعند ذلك تتفكك الصلات الاجتماعية التى تربطهم، ويحاول كل صانع، وقد صار هكذا وحده، مستقلاً بنفسه، أن يعمل على كسب أكبر ما يستطيع كسبه من مال، بأقل ما يمكن من التكاليف. ولا يمنعه من رفع السعر سوى إرادة المستهلك، ولكن قد يحدث فى الوقت نفسه تغيير مماثل فى نفس هذا المستهلك. ففى البلاد التى تتجمع فيها الأموال، كما تتجمع السلطات، فى أيدى فئة قليلة من الناس، وتظل طويلاً فى أيديهم، يصبح استخدام الجزء الأعظم من خيرات هذه الدنيا مقصوراً على عدد صغير من الناس يظلون دائماً هم هم لايتغيرون. فالضرورة والرأى العام، واعتدال الرغبات، تستبعد سائر الناس من الاستمتاع بتلك الخيرات. فمادامت هذه الطبقة الأرستقراطية ثابتة على قمة العظمة التى تسنمتها من غير أن يزداد عدد أفرادها أو ينقص، فستستأثر دائماً بنفس الاحتياطات بطريقة واحدة. فالناس الذين تتكون منهم هذه الطبقة الأرستقراطية يستمدون، بطبيعة الحال، من مركزهم السامى المتوارث هذا، ميلاً لكل ما هو متقن الصنع متين، مما يؤثر فى تفكير الأمة فى شئون الفنون والصناعات. وكثيراً ما يحدث بين أمثال هذه الأمة أن يؤثر حتى الفلاح نفسه الاستغناء عن الأشياء التى يصبو إليها، على أن يحصل عليها بشكل فج غير متقن، فالصناع فى البلاد الأرستقراطية يعملون إذن لعدد محدود من المستهلكين، لهم أذواق رفيعة، ويصعب إرضاؤهم؛ ويتوقف الربح الذى يأمل الصانع أن يناله على مدى عنايته بإتقان ما يصنعه.

ولكن الحال لاتكون كذلك، عندما تلغى جميع الامتيازات، وتختلط كل طبقات المجتمع بعضها ببعض، ويظل الناس يرتفعون فى السلم الاجتماعى أو يهبطون فيه باستمرار. هذا، وإنا لنجد دائماً فى البلاد الأرستقراطية، عدداً من المواطنين ممن قسمت أملاكهم وتناقصت ثرواتهم، قد اعتادوا من قبل فى ظروف أسعد مما هم فيه الآن، احتياجات تظل قائمة فيهم حتى بعد أن تكون وسائل سد هذه الاحتياجات قد زالت عنهم، فتراهم يسعون جادين متلهفين وراء طريقة ملتوية خفية لسد هذه الاحتياجات. ومن جهة أخرى نجد فى البلاد الديمقراطية عدداً كبيراً من الناس تزداد ثرواتهم، بينما تزداد كذلك رغباتهم بأسرع من تزايد قدرتهم المالية على إرضائها، فهم يتطلعون إلى مزايا الثروة سلفاً، وقبل أن تتوفر لهم وسائل الحصول عليها بزمن طويل. فأمثال هؤلاء الناس يتوقون لمعرفة أقصر الطرق التى تيسر لهم إرضاء تلك الرغبات التى كاد تحقيقها أن يكون فى متناول أيديهم. فعن اجتماع هذين السببين تنشأ فى البلاد الديمقراطية دائماً جمهرة من الناس، حاجاتهم أكثر من قدرتهم على الثراء، فآثروا القناعة بما يسد رغباتهم هذه بشكل ناقص، على أن ينزلوا عنها نفسها نزولاً مطلقاً.

ولا تخفى هذه الاتجاهات على الصانع، فما أيسر عليه إدراكها! لأنه نفسه يشارك فيها،

ولذا نراه فى البلاد الأرستقراطية يسعى لبيع منتجاته لفئة قليلة من الناس بثمن عال، أما الآن فلم يفته أن يدرك أن أيسر سبيل إلى الغنى أن يبيع سلعه إلى الجمهور بثمن قليل. وليس أمامه غير طريقين اثنتين لتخفيض أثمان سلعه، أولاهما أن يوفق إلى وسائل أسرع وأيسر لإنتاجها، والثانية إنتاج مقادير ضخمة متشابهة، ولكنها أقل ثمناً وجودة. فلا غرو أن كانت كل جهود الصانع العقلية تتجه فى البلاد الديمقراطية إلى تحقيق هذين الغرضين، فتراه يبذل كل ما أوتى من جهد لابتكار طرق جديدة، لا تيسر له أن يشتغل بطريقة أفضل فحسب، بل وتيسر له كذلك أن يعمل بسرعة أعظم وبتكاليف أقل.. وإن هو لم يوفق فى هذا عمد إلى التقليل من قيمة السلعة التى يصنعها دون أن يجعلها غير صالحة لأداء الغرض منها تماماً. ففى العصر الذى لم يكن يستطيع فيه غير الأغنياء أن يحرزوا ساعة، كانت الساعات كلها تقريباً جيدة كل الجودة، أما الآن فلم يعد الصناع ينتجون إلا ساعات متوسطة الجودة، ولكنها فى متناول جميع الناس. وهكذا نجد أن المبدأ الديمقراطى لا ينزع إلى توجيه العقل البشرى نحو الفنون النافعة فحسب، بل إنه ليستهوى الصانع إلى أن ينتج بسرعة كبيرة سلعاً غير متقنة، كما يستهوى المستهلك إلى الرضا بشراء تلك السلع. وليس معنى ذلك أن الفنون فى البلاد الديمقراطية لا تستطيع أن تأتى بالروائع والعجائب إذا ما اقتضتها الضرورة. فقد يحدث ذلك فعلا فى بعض الأحيان إذا ما توافر للصانع عملاء لا يضنون بدفع قيمة ما ينفقه من وقت وجهد. ففى وسط هذا الصراع القائم بين مختلف أنواع الصناعة، وفى وسط هذا التنافس الشديد، وهذه التجارب الكثيرة التى لا تحصى، قد يظهر بعض الصناع المهرة الذين يستطيعون أن يصلوا إلى أقصى مقتضيات فنهم، ولكن من النادر أن تتاح لهم الفرصة لإظهار ما يستطيعون أن يعملوه؛ فهم حريصون كل الحرص على ادخار قواهم، فيظلون فى حالة وسطى من حيث ما ينتجون. وهى حالة تقدر نفسها بنفسها؛ وعلى الرغم من قدرتها على تجاوز الحد الذى فرضته على نفسها ترمى إلى ما هو أسمى منه وأبعد؛ فهى تقنع بالوقوف عند ذلك الحد من حيث جودة ما تنتجه فعلاً. والأمر على النقيض من ذلك فى البلاد الأرستقراطية حيث يستطيع الصانع أن ينفذ كل ما يعرف أن يعمله. فهو يبذل كل ما فى طاقته، وإن توقف عند حد معين كان معنى ذلك أنه قد بلغ أقصى ما يستطيع أن يصل إليه فى فنه.

وإذا ما زرت بلاداً فوجدت فيها بعض روائع الفن وآياته، لم أتخذ هذه الحقيقة مصدراً استمد منه أية معلومات عن أحوال هذه البلاد الاجتماعية، ولا عن نظامها السياسى. على حين إن كان ما فيها من قطع فنية قاصراً عادة، وكثير العدد، ورخيص الثمن، اقتنعت بأن الامتيازات، فى البلد الذى فيه هذه القطع الكثيرة الرخيصة، قد أخذت تزول عنه، وأن المراتب والطبقات قد بدأت تختلط بعضها ببعض، حتى أصبحت فى طريقها لأن تكون كلها واحدة.

فالصناع فى العصور الديمقراطية لا يحاولون أن يجعلوا منتجاتهم الفنية فى متناول جميع

المواطنين فحسب، بل يبذلون جهدهم فى أن يضفوا على كل ما ينتجونه صفات جذابة ليست له فى الواقع، فحيث تختلط الطبقات بعضها ببعض، يأمل كل إنسان أن يبدو فى مظهر ليس له، ويعمل وسعه فى أن يحقق أمله هذا. فهذه نزعة طبيعية فى النفس البشرية لم تنشأ عن المبدأ الديمقراطى ولكن هذا المبدأ يطبقها على الأغراض المادية، فالرياء فى الفضائل موجود فى كل عصر. أما التظاهر بالترف فمن سمات العصور الديمقراطية بوجه خاص.

فكى ترضى الفنون هذا الغرور الإنسانى، لم تدع نوعاً من أنواع الخداع والتمويه إلا لجأت إليه. وقد بلغ بها تحايلها على ذلك مبلغاً يفوت عليها أغراضها التى ترمى إليها؛ ألا ترى أن أنواع الماس الزائف تصنع الآن بشكل يسهل انخداع المرء، فيعد الزائف منها حقيقياً؟ فإذا ما بلغ الزائف مبلغ الكمال حتى يتعذر تمييزه من الحقيقى، فمن المحتمل أن يهمل الناس النوعين كليهما ويصبح الماس كله عبارة عن حصى ليس إلا.

وهذا يفضى بنا إلى الكلام عن تلك الفنون التى يسمونها بالفنون الجميلة، تمييزاً لها عن غيرها، فلست أعتقد أن قلة عدد الذين يمارسون هذه الفنون يرجع بالضرورة إلى أحوال اجتماعية ديمقراطية وإلى مؤسسات ديمقراطية، ولكن هذه الأحوال وتلك المؤسسات تؤثر تأثيراً بالغاً فى الطريقة التى تتبع رعاية هذه الفنون، فالكثيرون ممن يميلون إلى رعايتها أصبحوا فقراء؛ ومن جهة أخرى أخذ كثيرون ممن لم يثروا بعد، يكتسبون هذا الميل إليها عن طريق المحاكاة، وبذلك ازداد عدد المستهلكين فى جملتهم، وقل كل القلة عدد من كان منهم ذا ثروة عريضة، وذوق سام رفيع. ومن ثم يحدث فى الفنون الجميلة شىء مماثل لما سبق أن أشرت إليه عند الكلام على الفنون النافعة، فقد ازداد إنتاج الفنانين، وضعفت قيمته الفنية؛ فإذا لم يعد فى قدرتهم أن يرتفعوا إلى المستوى السامى الجليل، سعوا وراء الجذاب وعنوا بالظاهر والصورة أكثر من عنايتهم بالحقيقة وبالجوهر.

ينتج الفنانون فى العصور الأرستقراطية بعض صور فخمة، على حين أنهم ينتجون فى العهود الديمقراطية عدداً ضخماً من الرسوم الصغيرة التافهة، ففى الأولى تقام التماثيل من البرونز وفى الثانية من الجص.

فلما وصلت نيويورك لأول مرة عن طريق ذلك الجزء من المحيط الأطلسى الذى يسمونه «بنهر الشرق» East River[1] دهشت من أن أرى على طول الشاطىء، وغير بعيد عن المدينة عدة قصور صغار مبنية بالمرمر الأبيض، والكثير منها على طراز «كلاسيكى» قديم. فلما عدت إليها فى اليوم التالى لأدرس عن كثب، وبمزيد من العناية ما استرعى نظرى منها بوجه خاص، فإذا بى أجد جدرانها من الطوب مطلية بالجص،

(١) الايست «ريفر» هذا هو الممر المائى الضيق بين جزيرة لنج آيلند، وجزيرة مانهاتان الموصل بين خليج نيويورك ولنج آيلند ساوند.

وأعمدتها من خشب مدهون ، وكذلك كانت سائر المبانى التى رأيتها الليلة السابقة ، فكلها من هذا الطراز .

ومع ذلك فالأحوال الاجتماعية والمؤسسات الديمقراطية تفيض على جميع الفنون القائمة على المحاكاة والتقليد نزعات معينة خاصة لايشق علينا تبينها ، فهى كثيراً ما تبعد الفنانين عن تصوير الروح ليركزوا كل همهم فى تصوير الجسم وحده ، وليحلوا تمثيل الحركة والإحساس محل تمثيل العاطفة والفكر . وجملة القول أنهم صاروا يحلون الواقعى محل المثالى .

وإنى ليساورنى الشك فيما إن كان رافائيل[1] قد درس آلية الجسم البشرى ودقائقها المعقدة ، بذلك الإتقان الذى يدرسها به المصورون فى عصرنا الحاضر ، فهو لم يعلق مثلهم أهمية كبيرة على مراعاة الدقة الصارمة فى هذه النقطة ، لأنه كان يصبو إلى أن يفوق الطبيعة نفسها ؛ وكان يسعى وراء أن يجعل الإنسان شيئاً أسمى من الإنسان ، فقد حاول أن يزين الجمال نفسه ويجمله . هذا ، وكان دافيد[2] وتلاميذه ، على العكس من رافائيل ، يتقنون فن التشريح إتقانهم التصوير ، فأبدعوا فى تصوير ما أمام أعينهم من نماذج ، ولكن ندر أن تصوروا شيئاً أسمى منه ، فقد اتبعوا الطبيعة حقاً وصدقاً ، على حين كان رافائيل يسعى وراء تحقيق ما هو أسمى من الطبيعة ، لقد خلفوا لنا صورة للإنسان دقيقة محكمة ، أما رافائيل فكانت أعماله تنم عن نحة قدسية .

إن ما ذكرته عن طريق معالجة موضوع ما يصدق كذلك حتى على طريقة اختياره نفسها ، فالمصورون فى عصر النهضة الأوربية كانوا يتجهون عادة إلى ما هو أسمى منهم بكثير ، وإلى أبعد مما فى عصرهم ، فى بحثهم عن الموضوعات العظيمة القوية التى تتيح لخيالهم مجالاً واسعاً لايحد . أما مصورونا فكثيراً ما كانوا يستنفدون مواهبهم فى تصوير تفاصيل الحياة اليومية التى تقع عليها عيونهم باستمرار ، فيحاكونها محاكاة صادقة ، فهم ينقلون دائماً أشياء توافه ، أصولها فى الطبيعة بكثرة كاثرة .

---

(١) «رافائيل» الرسام الإيطالى المشهور (١٤٨٣ - ١٥٢٠) واسمه الأيطالى رافاييلو سانتزيو .

(٢) دافيد : رسام فلمنكى (١٤٥٠ - ١٥٢٣) . وأكثر صوره زيتية .
دافيد (جاك لوى) : رسام فرنسى شهير (١٧٤٨ - ١٨٢٥) .

الفصل الثانى عشر

يقيم الأمريكيون بضع نصب تذكارية قمئة تافهة وأخرى بالغة الفخامة

أشرت توأ إلى أن الناس فى العصور الديمقراطية يقيمون نصباً تذكارية كثيرة العدد ولكنها قليلة القيمة، وخالية من الفخامة، وأبادر الآن وأذكر ما قد يستثنى من هذه القاعدة .

فلا يخفى أن الأفراد فى البلاد الديمقراطية، ضعاف كل الضعف، على حين أن الدولة التى تمثلهم جميعاً، وتشملهم، وتسيطر عليهم كلهم، قوية كل القوة. فليس فى غير الأمم الديمقراطية، يكون المواطن تافهاً كل التفاهة، على حين تبدو الأمة نفسها أعظم منه وأفخم، ويسهل على العقل أن يتصورها فى شكل واسع كل السعة، فخيال الأفراد فى هذه البلاد يضيق عندما ينظرون إلى أنفسهم، ويتسع إلى غير حد، عندما يفكرون فى دولتهم، فهؤلاء الناس الذين يعيشون عيشة ضيقة، فى منازل خانقة هم أنفسهم الذين يطمحون عادة إلى مراعاة الضخامة والفخامة فى إقامة نصبهم التذكارية العامة .

فقد اختار الأمريكيون بقعة واسعة كل السعة لينشئوا فيها مدينة ضخمة يتخذونها عاصمة لبلادهم، ولكن عدد سكان هذه العاصمة لم يزد إلى هذه اللحظة على عدد سكان مدينة «بنتواز»[1] فى فرنسا، مع أنهم قالوا إن سكانها سيبلغون المليون أو أكثر فى يوم من الأيام[2]. وفعلاً قام الأمريكيون بتطهير الأرض اللازمة من الأشجار على مسافة تمتد عشرة أميال حول هذه المدينة، حتى لاتعرقل فى المستقبل حركة المواطنين فى هذه العاصمة الخيالية، وأقاموا وسطها قصراً فخماً للكونجرس أطلقوا عليه «الكابيتول»[3] الرنان .

(١) بنتواز : مدينة فى فرنسا فى مقاطعة السين وألواز غير بعيدة عن باريس، يبلغ عدد سكانها ٠٠٠ ١١ نسمة .

(٢) بلغ عدد سكان مدينة واشنطن نفسها بحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ : ٠٠٠ ٨٧٠ نسمة وإذا أضيف إليها سكان الضواحى وعددهم ٠٠٠ ٢٦٤ ١ نسمة كانت جملة السكان ٠٠٠ ١٣٤ ٢ نسمة .

(٣) الكابيتول فى الأصل اسم على أحد تلول روما القديمة أقيم عليه معبد (٥٢٧ ق.م) للإله جوبتير يعد أروع معبد فى روما القديمة ، وهو الآن متحف .

وهو يطلق الآن فى أمريكا على المبنى الذى يضم دواوين الحكومة فى كل ولاية ، وبخاصة الهيئة التشريعية ، وأهمها كابيتول واشنطن ويضم مجلس الكونجرس .

وضع الحجر الأساسى فيه جورج واشنطن سنة ١٧٩٢ ويبلغ ارتفاع قبته الوسطى ٢٩٠ قدماً يعلوها تمثال الحرية المشهور .

هذا، والولايات المختلفة نفسها الأعضاء فى الاتحاد، تضع كل يوم الخطط اللازمة للقيام بمشروعات جسام تنفذها فعلاً، وهى مشروعات تستثير دهشة الأمم الأوربية الكبرى.

فالديمقراطية لاتدفع الناس إلى القيام بالكثير من الأعمال الصغيرة فحسب، بل تحفزهم فى الوقت نفسه إلى إقامة عدد قليل من النصب التذكارية الهائلة الحجم؛ أما ما بين هذين الطرفين، فلا شىء. ومن ثم صرنا نرى أن إقامة قليل من المبانى الضخمة المبعثرة هنا وهناك، لايدلنا على شىء من الأحوال الاجتماعية للشعب الذى أقام تلك المبانى، ولا عن مؤسساته الاجتماعية. هذا وأضيف إلى ذلك (وإن كان ما أضيفه هذا خارجاً عن الموضوع) أنه لاتزيدنا معرفة بمدى عظمة هذا الشعب ولا بازدهاره الحقيقى. فعندما تستطيع قوة ما، أيا كانت هـذه القوة، أن تحمـل شعباً بأسره على أن يتضافر لينجز مشروعاً معيناً، فإنها ستوفق بقليل من المعرفة، وبكثير من الوقت إلى إقامة شىء جسيم هائل، بوساطة هذه الجهود الكثيرة المتجمعة، إلا أن هذا لايؤدى بنا، مع ذلك، إلى القول بأن الشعب سعيد وبأنه مستنير وقوى كل القوة.

فقد وجد الأسبانيون مدينة مكسيكو حافلة بالمعابد الضخمة وبالقصور المنيفة الرحيبة الأرجاء، ولكن هذا كله لم يمنع كرتيز[1] من أن يقهر الإمبراطورية المكسيكية ويستولى عليها بما لايزيد على ستمائة جندى من المشاة وستة عشر حصاناً.

ولو عرف الرومان قوانين الهيدروليكا خيراً مما عرفوها، لما جشموا أنفسهم مئونة إنشاء كل تلك القنوات الحجرية التى تحيط بأطلال مدائنهم، ولكانوا استخدموا قوتهم وأموالهم استخداماً أفضل مما استخدموها فيه. فلو أنهم اخترعوا الآلة البخارية لكان من المحتمل ألا يمدوا إلى أطراف إمبراطوريتهم القصية، تلك الصخور الطويلة الاصطناعية التى نسميها «بالسكك الرومانية». فتلك شواهد رائعة على جهلهم بقدر ما هى شواهد على عظمتهم.

فالشعب الذى لم يخلف لنا سوى بضعة مواسير من الرصاص مدفونة فى باطن الأرض وبضعة قضبان من الحديد على سطحها كان يصح أن يسخر الطبيعة ويتغلب عليها أكثر مما فعل هؤلاء الرومان.

---

(١) هرناندو كرتيز الأسبانى (١٤٨٥ - ١٥٤٧) - وكان استيلاؤه على المكسيك سنة ١٥١٨.

الفصل الثالث عشر

خصائص الأدب فى العصور الديمقراطية

عندما يدخل السائح فى الولايات المتحدة مكتبة، ويفحص ما تزدان به رفوفها من كتب أمريكية، يتبين له أن عدد هذه الكتب كبير جداً، على حين أن عدد المعروفين من مؤلفيها قليل، وكذلك يجد (هذا السائح) عددا ضخماً من الكتب «الأولية» التى تهدف إلى تزويد الناس بمبادىء المعرفة الإنسانية، وهى كتب وضع أكثرها أصلاً فى أوربا ثم أعاد الأمريكيون طبعها[1] بعد تعديلها بما يلائم احتياجاتهم؛ ثم يلى ذلك عدد ضخم من الكتب الدينية، يكاد لايحصى، من أناجيل وعظات وقصص ومجادلات وتقارير عن جمعيات خيرية، وأخيراً، يجد قائمة طويلة من الكتيبات والرسائل السياسية القصار، ذلك لأن الأحزاب السياسية لاتنشر كتباً تحارب بها آراء خصومها، وإنما تنشر كتيبات ورسائل موجزة تنتشر بين الناس بسرعة تكاد لاتصدق، وإن كانت لاتعيش أياماً ثم تموت.

ولا يخلو الأمر من أن نجد بين منتجات العقل البشرى المغمورة هذه بضع مؤلفات أوسع شهرة، لعدد صغير من المؤلفين الذين يعرف الأوربيون أسماءهم، أو يجب أن يعرفوها.

ومع أن أمريكا قد تكون الدولة المتحضرة فى عصرنا التى حظى الأدب فيها بقليل من الاهتمام، فإن فيها مع ذلك عدداً كبيراً من الناس الذين يعنون بشئون الفكر ويجعلونها بهجة ساعات فراغهم، إن لم يجعلوها دراسة عمرهم. ولكن إنجلترا، لا أمريكا، هى التى تزود هؤلاء القراء بأكثر ما يحتاجون إليه من الكتب. فمعظم الكتب الإنجليزية العامة يعاد طبعها فى الولايات المتحدة. وعبقرية إنجلترا الأدبية لاتزال تبعث بأشعتها إلى أعماق الغابات التى فى الدنيا الجديدة، حتى لاتكاد تجد كوخاً من أكواخ الرواد يخلو من بضعة مجلدات عتيقة من مؤلفات شكسبير. وأذكر أنى قرأت مسرحية هنرى الخامس، الإقطاعية، لأول مرة فى كوخ من تلك الأكواخ المبنية بالخشب، المعروفة عندهم باسم log - houses.

فالأمريكيون لايرجعون باستمرار إلى ذخائر الأدب الإنجليزى فحسب بل لم يعُدْ

---

(١) وكتاب توكفيل هذا نفسه ترجم إلى الإنجليزية عقب ظهوره سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٤٠، وطبع فى أمريكا بعد ذلك سنة ١٨٣٨، ١٨٤٠، ثم نقح الترجمة وعدلها فرنسيس باون ونشرها سنة ١٨٦٢، ثم عدلها فيلبس برادلى ونشرها من جديد سنة ١٩٤٥.

الصوابَ من قال عنهم إنهم يجدون هذا الأدب نفسه ينمو فى تربتهم الأمريكية. فمعظم تلك الفئة القليلة من المشتغلين بالأدب فى الولايات المتحدة إنجليز من حيث الأصل ولا يزالون أكثر من ذلك من حيث الشكل. لأنهم ينقلون إلى صميم الديمقراطية الأفكار والآداب الذائعة فى الأمة الأرستقراطية التى اتخذوها نبراساً لهم يستضيئون به، ونموذجاً يحاكونه، فكأنى بهم يرسمونه بألوان مستعارة من العادات الأجنبية، ولا يمثلون أبداً فى كتاباتهم روح البلد الذى ولدوا فيه، بالصورة التى هو عليها. فلا غرو إذن إن لم ينالوا أية حظوة لدى القراء.

وظاهر الأمر أن المواطنين فى الولايات المتحدة يدون مقتنعين كل الاقتناع بأن ما ينشر بينهم من الكتب لم يوضع لهم، فقبل أن يجمعوا أمرهم على الإقرار بالفضل لمؤلف من كتابهم كانوا ينتظرون عادة حتى يستوثقوا من رأى الناس فى إنجلترا فيه، شأنهم فى ذلك شأن التصوير، فراسم الصورة الأصلية يعد صاحب الحق الأول فى الحكم على ما ينقل عن صورته من نسخ.

فليس عند الولايات المتحدة أى أدب إذن فى الوقت الحاضر. والمؤلفون الوحيدون الذين أعترف بأنهم أمريكيون هم الصحفيون، ومع أنهم ليسوا من كبار الكتاب عادة إلا أنهم يكتبون بلغتها، ويسمعون الناس أصواتهم. فهم للأمريكيين ما كانه مقلدو الإغريق والروم فى حركة النهضة الأدبية وإحياء العلوم، موضع غرابة وفضول لا موضع عطف عام من الجميع، لأنهم إنما يلهون العقل، ولا يؤثرون فى عادات الشعب الأخلاقية أى تأثير.

ذكر من قبل أن هذه الحال أبعد من أن تكون قد نشأت فى البلاد الديمقراطية وحدها، فيجب أن يتجه البحث عن أسبابها إلى عدة ظروف خاصة مستقلة عن المبدأ الديمقراطى. فإن كان الأمريكيون، مع احتفاظهم بحالتهم الاجتماعية وبقوانينهم، من أصل مختلف عن أصلهم، ثم انتقلوا إلى بلاد غير بلادهم، لما خامرنى أقل شك فى أنهم سيكون لهم أدبهم الخاص بهم. ومع ذلك، وحتى على ما هم عليه. فإنى مقتنع بأن سيكون لهم أدب فى آخر الأمر: إلا أن سمات هذا الأدب وخصائصه ستكون مختلفة عما يتجلى فى كتابات الأمريكيين فى العصر الحاضر. وستكون هذه السمات وتلك الخصائص أمريكية، وليس من قبيل المستحيل علينا أن نتتبع هذه السمات سلفاً.

وفى ظنى أن الاشتغال بالأمور العقلية فى الشعب الأرستقراطى الذى يعنى بالأدب سيركز فى طبقة حاكمة، شأنه شأن الاشتغال بأمور الحكم. فالحياة الأدبية والاشتغال بالأمور السياسية يكادان يقتصران على هذه الطبقة أو على أولئك الذين هم أقرب الناس إليها، من حيث مرتبتهم الاجتماعية. وحسبنا هذه المقدمات للباقى كله.

فعندما يشتغل عدد قليل من الناس بأعمال واحدة فى وقت واحد، يسهل عليهم أن يتفاهموا ويتفقوا على أن يضعوا معاً بضع مبادىء تسرى عليهم فرادى وجماعات. فإن كان

الأدب هو الذى استرعى انتباه هؤلاء الناس فسرعان ما يخضعون إنتاجهم العقلى لبضع قوانين لايسمح لأحد بالانحراف عنها. وإن كانوا ممن يشغلون مراكز وراثية فى البلاد، مالوا بطبيعة الحال إلى أن يضعوا لأنفسهم بضع قواعد معينة ثابتة فحسب، بل إنهم ليتبعون كذلك القواعد التى سبق أن فرضها أجدادهم على أنفسهم من قبل، وبذلك يصبح تشريعهم صارماً متشدداً من جهة، وتقليداً مأثوراً من جهة أخرى. ولما كانت شئون الحياة المادية لاتشغل بالهم بالضرورة، وهى فى الواقع لم تشغلهم قط كما لم تشغل أجدادهم من قبل -فقد تعلموا من عدة أجيال مضت أن يعنوا بالأمور العقلية وبالإنتاج الفكرى، فعرفوا الأدب من حيث هو فن، ثم أحبوه فى النهاية لذات الأدب نفسه، فتراهم يسرون سرور العارف من كل من يجرى على مبادئه وسننه. وليس هذا كل ما فى الأمر، فالناس الذين أتحدث عنهم هؤلاء نشأوا فى أحضان الرخاء أو الغنى وسيظلون ينعمون بهذا أو ذاك طيلة حياتهم. فلا غرو إن نما فيهم ميل لتذوق متع منتقاة خير انتقاء، ومحبة للذات الرفيعة الدقيقة. وزيادة على ذلك، فإنهم لطول عهدهم بالاستمتاع برغد العيش فى كنف الهدوء والسلام، صار فيهم شيء من الرقة، فى كل من القلب والعقل تجعلهم يستبعدون من ملذاتهم كل ما يتسم بالمفاجأة أو بالحدة البالغة، فهم يؤثرون أن يتسلوا على أن تحرك انفعالاتهم وتهاج، كما يعجبهم أن يستثار اهتمامهم، لا أن يخرجهم شيء عن طبيعة أنفسهم.

ولنفرض الآن أن عدداً كبيراً من المؤلفات الأدبية، كتبها ناس من طراز من وصفنا، أو كتبت من أجلهم، وعندئذ يسهل علينا أن نتصور طرازاً من الأدب كل شيء فيه منظم ومدروس من قبل، فأتفه كتاب إنما يوضع بعناية وإحكام، حتى فى أبسط تفاصيله، ويتجلى فيه أثر الفن والصنعة والكدح واضحاً فى كل مافيه. فكل نوع من الكتابة له قواعده ونظمه الخاصة به، التى لايجوز الانحراف عنها، والتى تميزه على كل ما عداه من الأنواع الأخرى، ويكون الأسلوب موضع عناية لاتقل عما يوجه منها إلى الفكرة والمعنى، وتنال الصورة حظها من الاهتمام، شأنها فى ذلك شأن المادة نفسها؛ ويكون أسلوب الكتابة مصقولاً منسجماً، كل شيء فيه بقدر، ويتجلى فيه تفكير الكتاب وقوراً دائماً، ويندر أن يكون عنيفاً، هذا ويتجه الكتاب إلى تجويد ما ينتجونه وإحكامه، أكثر ما يتجهون إلى غزارة الإنتاج. ويحدث فى بعض الأحيان أن يفقد الأدباء وهم يعيشون دائماً فى وسط أمثالهم، ويكتبون ما يكتبون لأنفسهم وحدهم -أن يفقدوا النظر إلى سائر العالم الذى حولهم، مما يجعل لهم فى كتاباتهم أسلوباً زائفاً متكلفاً، فيضعون قواعد أدبية لاستعمالهم خاصة، مما يؤدى بهم بشكل غير محسوس، إلى أن يحيدوا عن الذوق السليم، وينتهى بهم الأمر إلى تجاوز حدود الطبيعة نفسها من جراء ما يبذلونه من جهود شاقة فى جعل أسلوبهم فى التعبير يختلف كل الاختلاف عن الأسلوب الذى يصطنعه الناس، فينتهى بهم الأمر إلى نوع من الرطانة الأرستقراطية تكاد تبعد عن اللغة النقية بقدر ما يبعد أسلوب العامة الحوشى عنها، تلك هى الأخطار الطبيعية التى تحدق بالأدب فى الشعوب

الأرستقراطية، فكل أرستقراطية تنفصل عن الشعب، وتقف بمنأى عنه، تصبح واهنة لاحول لها ولا قوة، وهذه حقيقة تصدق فى الأدب كما تصدق فى السياسة .

ولنقلب الصفحة الآن وننظر ما فى جانبها الآخر، لننتقل إلى صميم ديمقراطية هيأتها تقاليدها القديمة، وأعادتها ثقافتها الحاضرة، للمشاركة فى المتع العقلية. فالطبقات والمراتب تختلط فى هذه الديمقراطية بعضها ببعض اختلاطاً يكاد يوحدها؛ وتكون المعارف والسلطة مقسمة فيها أقساماً لانهاية لها ولا حد، وإن شئت قلت أنها تصبح مبعثرة فى كل رجا من الأرجاء. فلدينا إذن طراز مختلط، علينا أن نعمل على سد احتياجاته الفكرية، فأنصار الملذات العقلية الجدد هؤلاء، لم يتلقوا كلهم تعليماً واحداً؛ فثقافتهم ليست واحدة، ولا هم يشبهون آباءهم فى شىء؛ بل إنهم ليختلفون عن أنفسهم اختلافاً مستمراً، لأنهم يعيشون فى حالة تتغير معالمها باستمرار من حيث المكان والعواطف والثروة، فعقل كل منهم ليس مرتبطاً إذن بعقول الآخرين بروابط التقاليد أو العادات المشتركة. ولم تكن لهم أبداً القوة، ولا الإرادة، ولا الوقت الكافى ليتفاهموا وليعملوا معاً؛ ومع ذلك ينشأ المؤلفون والكتاب من هذه المجموعة المتنافرة المستثارة. وهذه المجموعة نفسها هى التى توزع على هؤلاء الكتاب والمؤلفين الأموال والأمجاد .

أستطيع أن أفهم فى يسر وسهولة أنه يجب علينا أن ننتظر فى مثل هذه الظروف، ألّا نصادف فى آداب مثل هذا الشعب سوى قليل من القواعد التقليدية الصارمة التى يسلم بها القراء والكتاب فى العصور الأرستقراطية. فلو حدث فى عصر من هذه العصور اتفاق على بضعة قواعد من هذا القبيل، فهذا الاتفاق لايعنى شيئاً لأهل العصر الذى يليه؛ لأن كل جيل من الأجيال فى الأمم الديمقراطية يعد شعباً جديداً. فالأدب عند أمثال هذه الأمم إذن لايتيسر إخضاعه لمثل هذه القواعد، وهى قواعد يستحيل أن تكون دائمة .

ليس جميع من يعنون بشئون الأدب فى البلاد الديمقراطية ممن تربوا تربية أدبية، ومعظم الذين كانت لديهم مسحة أدبية اشتغلوا إما بالسياسة، وإما بحرفة لاتتيح لهم، إلا أحياناً وخلسة، أن يستمتعوا بالملذات العقلية. ومن ثم لايجعلون من هذه المتع البهجة الأساسية فى حياتهم بل يعدونها مجرد وسائل للاسترواح العابر، وضرورية لاستجمامهم عقب ما يقومون به من أعمال الحيدة الجدية. فأمثال هؤلاء لايمكن أن يحصلوا مطلقاً على معرفة واسعة ووثيقة بفنون الأدب تمكن لهم من أن يقدروا ما فيه من جمال، ولابد من أن تفوتهم تلك الفروق الدقيقة التى فى رشاقة التعبير، ولما كان الوقت الذى يستطيعون أن يخصصوه لشئون الأدب ضئيلاً، فقد عملوا على استغلاله أيما استغلال فصاروا يفضلون من الكتب ما يسهل الحصول عليه، وما يقرأ فى يسر وسرعة، وما لايتطلب فهمه أى بحوث علمية. فهم يطلبون ضروب الجمال الظاهرة التى كأنها تعرض عليهم نفسها بنفسها، والتى يمكنهم أن يستمتعوا بها فى يسر، ولابد لهم، أول كل شىء، من الجديد

غير المشكوك فى جدته، وإذ قد اعتادوا الصراع والصدام والتمطية فى حياتهم العملية، فهم بحاجة إلى انفعالات سريعة عنيفة، وقطع أدبية واضحة كل الوضوح، وحقائق أو أخطاء باهرة تستثيرهم وتدفعهم فى الحال إلى صميم الموضوع، كأنما تدفعهم إليه قوة خارقة.

وماذا الذى يدعونى إلى المزيد من القول، بل ومن ذا الذى لا يدرك ما سيلى من قولى قبل أن أذكره؟ إن الأدب، لايستطيع أن يقدم لنا فى العصور الديمقراطية ما كان يقدمه فى العصور الأرستقراطية من صور للنظام، ولا الاتساق، والعلوم، والفنون، بل إن شكل هذا الأدب على العكس يكون موضع استخفاف عادة وأحياناً موضع الاحتقار. وكثيراً ما يكون الأسلوب فيه خاطئاً وثقيلاً وركيكاً، ويكاد أن يكون دائماً عنيفاً وجريئاً. فالمؤلفون يهدفون إلى السرعة فى الإنجاز أكثر مما يهدفون إلى الكمال وإحكام التفاصيل. وتكون المؤلفات الصغيرة هى العادة بدلاً من المطولات، ويتجلى فيها عادة الذكاء والفطنة أكثر من العلم والمعرفة. والخيال أكثر من العمق، ويتسم الإنتاج بأمارات تدل على تفكير نشيط قوى، ولكنه تفكير لم يدرب، وكثيراً ما يكون منوعاً كل التنوع وخصباً كل الخصوبة، ويقصد الكتاب إلى استثارة الدهشة فى الناس، أكثر مما يهدفون إلى إدخال السرور على نفوسهم، وإلى تحقيق الاستثارة بدلاً من أن يرضوا الأذواق الرفيعة.

ولا شك فى أن كتاباً يسلكون طريقاً آخر غير هذا الطريق؛ سيظهرون الفينة بعد الفينة فى تلك البلاد، فإن كانوا موهوبين فسيجدون لهم قراء على الرغم مما فيهم من نقائص ومن عيوب أو من قدرات طبيعية، ولكن هؤلاء الكتاب شواذ، وهم قلة عادة، وحتى إن كان المؤلفون الذين يشذون عن المألوف فى العصر، فى موضوع كتبهم الرئيسى، فإنهم سينكصون دائماً ويعودون إليه فى بعض التفاصيل الصغيرة.

هأنذا قد فرغت تواً من تصوير حالتين متطرفتين، ولكن الأمم لا تنتقل طفرة واحدة من الحالة الأولى إلى الثانية، فهى لا تصل إليها إلا على مراحل عدة، وبتدرج طويل. ففى أثناء انتقال أمة متعلمة من حالة منهما إلى أخرى يغلب أن يجىء وقت، تلتقى فيه عبقرية الأمم الديمقراطية بعبقرية الأمم الأرستقراطية، فيبدو أن كل أمة منهما تسعى وراء الاتفاق مع الأخرى على فرض سلطانهما على العقل البشرى، ولكن هذه الأوقات وأمثالها عابرة زائلة، ومع ذلك فهى رائعة كل الروعة، وخصبة فى غير إسراف، وحية نشيطة فى غير اضطراب. فالأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر يصلح أن يكون مثلاً على ذلك.

فلو أنى قلت أن أدب الأمة يخضع دائماً لأحوالها الاجتماعية ولنظامها السياسى لكنت قد قلت أكثر مما أعنى، فلا يغرب عنى أن ثمة أسباباً أخرى غير هذه الأسباب تضفى على المؤلفات الأدبية مميزات رئيسية، ولكن ما ذكرته من هذه الأسباب يعد أهمها، فالعلاقات بين حالة الشعب الاجتماعية وحالته السياسية، وبين عبقرية مؤلفيه، كثيرة دائماً حتى أن من يعرف إحداهما لا يجهل الأخرى جهلاً تاماً.

الفصل الرابع عشر

حـــرفة الأدب

لاتخلق الديمقراطية فى طبقات التجار والصناع ميلاً إلى الأدب فحسب، بل إنها لتدخل فيه روح التجارة .

فليس عدد القراء فى البلاد الأرستقراطية بالكبير، وإرضاؤهم من أصعب الأمور، على حين أن عددهم فى البلاد الديمقراطية أكبر، وإرضاؤهم أهون وأيسر، ومن ثم لا يأمل أحد فى البلاد الأرستقراطية أن ينجح من غير بذل جهود جبارة تؤدى إلى الشهرة المستفيضة، وإن كانت شهرة لاتدر عليه مالاً وفيراً. أما فى البلاد الديمقراطية فقد يخدع الكاتب نفسه ويمنيها بالحصول على شىء من الشهرة، بقليل من الجهد والمال لايكلفه غير ثمن قليل، وبالحصول على ثروة ضخمة، ولهذا لم يكن بحاجة إلى إعجاب الناس به وحسن تقديرهم له، بل حسبه منهم أنهم يحبونه ويقبلون على شراء كتبه .

فازدياد عدد القراء المستمر، وتلهفهم على الجديد باستمرار يكفل رواج الكتب التى تصدر ولا يقدرها أحد قدراً كبيراً .

فكثيراً ما كان الجمهور يعامل المؤلفين فى العصور الديمقراطية على نحو ما يعامل الملوك رجال حاشيتهم؛ فقد كانوا يغدقون عليهم الأموال، ويحتقرونهم فى الوقت نفسه: فما عسى أن يتطلب أولئك الأشخاص الذين يبيعون أنفسهم بالمال، والذين ولدوا وعاشوا فى بلاطات الملوك، أو الجديرون بأن يعيشوا فيها ؟

إن الأدب الديمقراطى حافل دائماً بفئات من أمثال هؤلاء الكتاب الذين لايرون فى الأدب سوى أنه حرفة. ومن أجل هذا صرنا نجد إلى جانب عدد صغير من كبار الكتاب والمؤلفين الذين يزدان بهم جيد الأدب آلافاً من تجار الأفكار وباعة الألفاظ .

الفصل الخامس عشر

دراسة الآداب الإغريقية واللاتينية تفيد الجماعات الديمقراطية بوجه خاص

كان مدلول لفظ «الشعب» عند معظم الجمهوريات القديمة وأكثرها إغراقاً فى الديمقراطية، مختلفاً كل الاختلاف عما نقصده نحن الآن بهذه اللفظة عينها، ففى أثينا كان جميع المواطنين يشاركون فى الشئون العامة، ولكن لم يكن فيها، مع ذلك، من المواطنين سوى عشرين ألفاً من الثلاثمائة والخمسين ألف ساكن؛ أما الباقون فكانوا أرقاء يقومون بالجزء الأكبر من الأعمال التى تؤديها فى عصرنا الحاضر الطبقات الدنيا من الشعب، والطبقات الوسطى فى بعض الأحيان، فأثينا، على الرغم من وجود الانتخاب العام، ليست، بعد كل شىء، سوى جمهورية أرستقراطية، فلكل النبلاء فيها حق المشاركة فى الحكم.

هذا ويجب أن ننظر إلى ذلك الصراع الذى نشب فى روما بين البطارقة والدهماء على هذا الضوء نفسه، فهو لا يعدو أن يكون صراعاً صغيراً بين فرعى أسرة واحدة، الفرع الأكبر والفرع الأصغر. فكل أعضائها ينتمون فى الواقع إلى الأرستقراطية وكلهم متشبع بروحها.

وزيادة على ذلك، يجب ألا يغرب عنا أن الكتب نادرة عند الأقدمين دائماً، وغالية الثمن، وأن عقبات كثيرة قامت فى سبيل نشرها وتداولها، مما أدى إلى تركيز الميل الأدبى، والعادات، فى نفر قليل من الناس تكونت منهم أرستقراطية صغيرة مختارة من صفوة الأرستقراطيين السياسية الكبيرة. ومن ثم لم يكن شىء قط عند اليونان أو عند الرومان يدل على أن الأدب كان حرفة.

فهذه الشعوب، وهى جماعات ليست بالأرستقراطية فحسب، بل أمم مهذبة كل التهذيب، وحرة كل الحرية، قد أفاضت بالطبع على الأعمال الأدبية جميع الرذائل والمحاسن التى تتميز بها آداب العصور الأرستقراطية عادة، وحسبنا لمحة خاطفة نلقيها على ما خلفه لنا القدامى من مؤلفات لندرك أن هؤلاء الكتاب، إن كان ينقصهم أحياناً التنوع والعمق فى موضوعاتهم، أو تعوزهم الجرأة والحيوية والتعميم فى أفكارهم، فقد كانوا دائماً

يبدون فناً رائعاً، ويحرصون على مراعاة الدقة فيما يذكرونه من تفصيلات.. فلا شيء في مؤلفاتهم يظهر عليه أنه تم في عجلة أو مصادفة، بل كان كل سطر يكتب ليعرض على نظر الناقد الخبير، وعلى أساس فكرة من الجمال المثالي، فليس ثمة أدب يبرز هذه الصفات الرفيعة، التي تعوز بالطبع الكتاب في البلاد الديمقراطية بمثل ما يبرزها الأدب القديم، ومن ثم وجب أن نتوفر على دراسات الأدب في العصور الديمقراطية أكثر مما يدرس أي أدب آخر، فهي أفضل من غيرها لمقاومة النقائص الأدبية الذاتية في تلك العصور، أما من حيث صفاتها الأدبية الطبيعية فإنها ستنبثق تلقائياً من غير أن يكون ثمة ضرورة ماسة إلى تعلمها.

ومن الخير أن نفهم هذه النقطة حق الفهم، فقد تكون دراسة معينة مفيدة لأدب شعب معين، من غير أن تكون ملائمة لاحتياجاته الاجتماعية والسياسية، فإن أصر الناس على ألا يتعلموا أدباً ما غير أدب اللغات الميتة في مجتمع يطلب فيه من كل امرىء أن يبذل جهوداً عنيفة لزيادة ثروته أو للاحتفاظ بها، كانت النتيجة قيام صنف من المواطنين مهذبين كل التهذيب، وخطرين كل الخطر، فإذا كانت الأحوال الاجتماعية والسياسية تتيح لهم كل يوم الشعور باحتياجات جديدة، فإنهم لاشك سيعكرون صفو الدولة باسم الإغريق والرومان، بدلاً من أن يعملوا على ازدهارها بقيامهم بأعمال صناعية أو تجارية منتجة.

فلا يخفى أن مصلحة الفرد، وسلامة البلاد، تتطلبان أن تكون تربية العدد الأكبر من المواطنين في البلاد الديمقراطية تربية علمية، تجارية وصناعية، أكثر منها أدبية. فيجب ألا تدرس اللغتان اللاتينية والإغريقية في جميع المدارس، ومع ذلك فمن الأهمية بمكان أن يجد الناس الذين يؤهلهم طبعهم، أو تؤهلهم ثروتهم، لدراسة الأدب، أو الذين يرون في أنفسهم الاستعداد لتذوقه- فهؤلاء يجب أن يجدوا المدارس التي تزودهم بمعرفة كاملة بالآداب القديمة- مدارس يمكن أن يتخرج فيها العالم الحقيقي. فبضع جامعات طيبة تعاون على تحقيق هذا الغرض خير من كثير من المدارس الثانوية الرديئة التي تدرس فيها مواد ثانوية لالزوم لها، بشكل سيىء، تعوق تدريس المواد الضرورية، التدريس الصحيح الناجع.

فعلى من يطمحون إلى التفوق في دراسة الآداب في البلاد الديمقراطية أن ينهلوا من منابع الأدب القديم، فليس ثمة شيء أصلح للعقل منه. وليس معنى ذلك أني أرى إنتاج القدامى الأدبي كاملاً لا عيب فيه، بل كل ما أريد أن أقوله أن لهذا الأدب فضائل ومميزات خاصة تعاون كل العون على مقاومة مافينا من نقائص معينة مقاومة ناجعة؛ فهو دعامة تسندنا من الجانب الذي نخشى كل الخشية أن نسقط فيه.

الفصل السادس عشر

أثر الديمقراطية الأمريكية فى اللغة الإنجليزية

لو أن القارىء فهم ما سبق أن قلته فى موضوع الأدب بوجه عام حق الفهم، لما وجد أية مشقة فى إدراك نوع التأثير الذى يمكن أن تخلقه الأحوال الاجتماعية الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية، فى اللغة نفسها، فاللغة كما لايخفى، أداة الفكر الرئيسية .

ولا نعدو الصواب إن قلنا أن المؤلفين الأمريكيين يعيشون فى إنجلترا أكثر مما يعيشون فى بلادهم، ماداموا يدرسون باستمرار مؤلفات الكتاب الإنجليز، ويتخذونها نماذج لهم يحتذونها باستمرار كذلك. ولكن هذا القول لايصدق على جمهرة الشعب نفسه، لأنه معرض مباشرة للعوامل الخاصة المؤثرة فى الولايات المتحدة، فيجب أن نوجه اهتمامنا هنا إذن إلى اللغة المنطوقة، لا إلى اللغة المكتوبة، إن أردنا أن نقف على التغييرات التى تطرأ على لهجة شعب أرستقراطى بعد أن تصبح لغته لغة ديمقراطية .

أكد لى كثيرون من الإنجليز المتعلمين، وأكد لى من هم أقدر منى على الحكم على تلك الفروق الدقيقة فى أساليب التعبير -أكدوا لى أن لغة الطبقات المستنيرة فى الولايات المتحدة تختلف اختلافاً بينا عن لغة الطبقات المتعلمة فى بريطانيا، فهم لايشكون من أن الأمريكيين أذاعوا طائفة من الألفاظ الجديدة فحسب، (فالفرق بين البلدين وبعد الشقة بينهما يكفيان لتعليل ذلك) بل يشكون أيضاً من أن هذه الألفاظ الجديدة قد استمدت بوجه خاص من رطانة الأحزاب أو من مصطلحات الفنون الميكانيكية، أو من الصناعة والتجارة. وزيادة على ذلك، أكدوا لى أن الأمريكيين كثيراً ما يستعملون الألفاظ الإنجليزية القديمة فى معان ومناسبات جديدة، وأخيراً يقولون أن سكان الولايات المتحدة كثيراً ما يمزجون العبارات بعضها ببعض مزجاً غريباً، ويضعون فى بعض الأحيان ألفاظاً يحرص الإنجليز على استبقائها مفصولة. فهذه الملاحظات التى أبداها لى مرات متعددة أشخاص أراهم جديرين بالثقة هى التى دفعتنى إلى التفكير فى هذا الموضوع، فأدى بى تفكيرى، عن طريق الاستدلال النظرى، إلى النقطة التى وصل إليها من أخبرونى بها عن طريق الخبرة العملية .

لامندوحة للغة من التأثر بحالة الاستقرار الغالبة على كل شىء فى البلاد

الأرستقراطية ، فلا وضع فيها سوى القليل من الألفاظ الجدد لأنه لايعمل فيها سوى القليل من الأشياء الجديدة ، وحتى إن حدث وعملت أشياء جديدة فإنهم يعبرون عنها بألفاظ معهودة لهم سبق أن حددت الرواية والتقاليد معانيها . فإن نشط العقل البشرى ، بأخرة ، من تلقاء نفسه ، أو حدث أن أيقظته أضواء نفذت إليه من الخارج ، اصطبغت الألفاظ الجدد التى يضعونها بصبغة أكاديمية فلسفية أو عقلية تنم عن أنها لم تنشأ فى بلاد ديمقراطية ، فعندما اتجهت الآداب والعلوم صوب الغرب بعد سقوط القسطنطينية ، غزت اللغة الفرنسية طائفة من الألفاظ المستحدثة اختيرت أصولها من اللغتين اللاتينية والإغريقية ، وبذلك نشأت فى فرنسا صيغ لغوية جدد لها طابع المعرفة الواسعة اقتصر استعمالها على الطبقات المتعلمة ، ولم تؤثر تأثيراً محسوساً فى لغة الشعب ، وإنما كان تأثيرها فيها تدريجياً .

وقد حدث مثل هذا التغيير نفسه فى جميع الدول الأوربية ، الواحدة بعد الأخرى ، فقد أدخل ميلتن وحده أكثر من ستمائة كلمة جديدة فى اللغة الإنجليزية استمدها كلها أو جلها من اللغات القديمة الإغريقية واللاتينية ، والعبرية ، فالحركة المستمرة التى تسود البلاد الديمقراطية تتجه باستمرار ، على العكس من ذلك ، إلى تغيير سمات اللغة ، كما اتجهت إلى تغيير سمات الأعمال من صناعية وتجارية ، ففى وسط هذه الحركة العامة ، ووسط تنافس العقول تنشأ آراء كثيرة جديدة ، وتزول أخرى قديمة ، أو تعود إلى الظهور بعد أن قد هجرت ، أو تنقسم أقساماً لاتحصى ، بينها ظلال ضئيلة من الفروق ، مما يترتب عليه ضرورة إهمال طائفة من الألفاظ وإدخال أخرى غيرها واستعمالها .

وزيادة على ذلك فالأمم الديمقراطية تحب التغيير لذات التغيير ، ويتجلى أثر ذلك فى سياستها ، وحتى عندما لايكون الناس بحاجة إلى تغيير الألفاظ فإنهم قد يشعرون بالرغبة فى هذا التغيير .

إن عبقرية الأمم الديمقراطية هنا ، لاتتجلى فى العدد الكبير من الألفاظ الجدد التى يستخدمها الناس فحسب ، بل تتجلى كذلك فى طبيعة الأفكار ذاتها التى تمثلها هذه الألفاظ . فالأغلبية فى مثل هذا الشعب هى التى تفرض قوانين اللغة ، كما تفرضها فى أى شىء آخر ؛ فروحها السائدة تتجلى فى هذا الأمر كما تتجلى فى كل شىء غيره ، ولكن الجمهرة الكبرى من الناس مشغولون بالشئون العملية أكثر من انشغالهم بالدرس والبحث ، وبالمصالح السياسية والتجارية ، منهم بالتأمل الفلسفى والدراسات الأدبية المنوعة . فمعظم ما يوضع لها من ألفاظ أو يختار ليمثل يحمل طابع « الأعمال » وأهواء الأحزاب ، وتفصيلات الإدارة العامة ، وتظل اللغة تنمو باستمرار فى هذه النواحى على حين تضعف تدريجياً فى الميتافيزيقا واللاهوت .

أما من حيث المصادر التى اعتادت الأمم الديمقراطية أن تستمد منها العبارات الجدد ، وأما من حيث الطريقة التى يصوغونها بها ، فكلاهما يسهل شرحه ، فسكان البلاد

الفصل السادس عشر

أثر الديمقراطية الأمريكية فى اللغة الإنجليزية

لو أن القارىء فهم ما سبق أن قلته فى موضوع الأدب بوجه عام حق الفهم، لما وجد أية مشقة فى إدراك نوع التأثير الذى يمكن أن تخلقه الأحوال الاجتماعية الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية، فى اللغة نفسها، فاللغة كما لايخفى، أداة الفكر الرئيسية .

ولا نعدو الصواب إن قلنا أن المؤلفين الأمريكيين يعيشون فى إنجلترا أكثر مما يعيشون فى بلادهم، ماداموا يدرسون باستمرار مؤلفات الكتاب الإنجليز، ويتخذونها نماذج لهم يحتذونها باستمرار كذلك. ولكن هذا القول لايصدق على جمهرة الشعب نفسه، لأنه معرض مباشرة للعوامل الخاصة المؤثرة فى الولايات المتحدة، فيجب أن نوجه اهتمامنا هنا إذن إلى اللغة المنطوقة، لا إلى اللغة المكتوبة، إن أردنا أن نقف على التغييرات التى تطرأ على لهجة شعب أرستقراطى بعد أن تصبح لغته لغة ديمقراطية .

أكد لى كثيرون من الإنجليز المتعلمين، وأكد لى من هم أقدر منى على الحكم على تلك الفروق الدقيقة فى أساليب التعبير -أكدوا لى أن لغة الطبقات المستنيرة فى الولايات المتحدة تختلف اختلافاً بينا عن لغة الطبقات المتعلمة فى بريطانيا، فهم لايشكون من أن الأمريكيين أذاعوا طائفة من الألفاظ الجديدة فحسب، (فالفرق بين البلدين وبعد الشقة بينهما يكفيان لتعليل ذلك) بل يشكون أيضاً من أن هذه الألفاظ الجديدة قد استمدت بوجه خاص من رطانة الأحزاب أو من مصطلحات الفنون الميكانيكية، أو من الصناعة والتجارة. وزيادة على ذلك، أكدوا لى أن الأمريكيين كثيراً ما يستعملون الألفاظ الإنجليزية القديمة فى معان ومناسبات جديدة، وأخيراً يقولون أن سكان الولايات المتحدة كثيراً ما يمزجون العبارات بعضها ببعض مزجاً غريباً، ويضعون فى بعض الأحيان ألفاظاً يحرص الإنجليز على استبقائها مفصولة. فهذه الملاحظات التى أبداها لى مرات متعددة أشخاص أراهم جديرين بالثقة هى التى دفعتنى إلى التفكير فى هذا الموضوع، فأدى بى تفكيرى، عن طريق الاستدلال النظرى، إلى النقطة التى وصل إليها من أخبرونى بها عن طريق الخبرة العملية .

لامندوحة للغة من التأثر بحالة الاستقرار الغالبة على كل شىء فى البلاد

المؤسسات الجمهورية فى الولايات المتحدة وما أمامها من فرص للبقاء

الاتحاد حادث عارض - والمؤسسات الجمهورية أبقى منه وأدوم - الجمهورية هى حتى الآن حالة الأمريكيين الإنجليز الطبيعية - القضاء عليها يقتضى تغيير القوانين كلها فى وقت واحد ، وإحداث تغيير عظيم فى أخلاق الناس وعاداتهم كلها - العقبات التى تقوم فى سبيل الأمريكيين إن هم حاولوا إقامة أرستقراطية بينهم .

إن تفكك أواصر الاتحاد الذى ينجم عن قيام الحروب فى قلب الولايات « المتحالفة » الآن ، وما يترتب على ذلك من إدخال نظم الجيوش القائمة ، وإقامة ديكتاتورية غشوم ، وفرض ضرائب باهظة ، قد يؤدى فى النهاية إلى الإضرار بمصير المؤسسات الجمهورية . ولكن يجب ألا نخلط بين ما ينتظر الجمهورية فى المستقبل ، وبين ما ينتظر الاتحاد . فالاتحاد أمر عارض لايدوم إلا ما بقيت الظروف والأحوال مواتية له ، على حين أن الشكل الجمهورى يبدو لى أنه الحالة الطبيعية عند الأمريكيين . وليس يستطيع شىء أن يحولها إلى ملكية سوى أسباب معادية تعمل باستمرار فى اتجاه واحد بعينه . فالاتحاد موجود أساساً فى القانون الذى خلفه . فثورة واحدة ، أو تغيير واحد فى الرأى العام ، قد يكفى للقضاء عليه إلى الأبد ، ولكن الجمهورية تقوم على أساس أوطد من ذلك وأعمق .

إن مايفهمونه فى الولايات المتحدة من الحكومة الجمهورية لايعدو تأثير المجتمع فى نفسه تأثيراً بطيئاً هادئاً . فالحكومة الجمهورية فى نظرهم حالة اجتماعية منتظمة تقوم أساساً على إرادة الشعب المستنيرة . فهى حكومة مسالمة ، يترك فيها للقرارات وقت كاف لتختمر وتناقش ، ولا تنفذ إلا بعد أن ينضج الرأى فيها تمام النضج .. هذا ، ويعلى الجمهوريون فى الولايات المتحدة من قيمة الأمور الأخلاقية ، ويحترمون المعتقدات الدينية ، ويعترفون بالحقوق ، ويرون أن الشعب يجب أن يكون أخلاقياً ، متديناً ، معتدلاً ، عفيفاً ، بقدر مايجب أن يكون حراً . وليس ما يسمونه « بالجمهورية » فى الولايات المتحدة ، سوى حكم الأغلبية الهادىء الذى يعدونه المصدر العام الذى تستمد منه الدولة كل سلطانها . وهو لم يصبح كذلك إلا بعد أن استغرق الوقت الكافى فى فحص نفسه ، وأثبت وجوده فعلاً . ولكن قوة الأغلبية هذه ليست بالقوة المطلقة غير المحدودة ، ففوقها ، من الناحية الأخلاقية ، الإنسانية والعدالة والعقل ؛ وفوقها ، من الناحية السياسية ، حقوق مقررة . هذا وتسلم الأغلبية بوجود هذين الحدين الحاجزين ، فإن حدث وتحدتهما أحياناً ، فما ذلك إلا أنها لها أهواؤها ، شأنها شأن الأفراد ؛ وهى معرضة مثلهم ، لأن تقع فى الخطأ ، وإن كانت تعرف ماهو صواب وحق .

ولكن الخطباء الشعبيين فى أوربا قد توصلوا إلى كشوف عجيبة ! فليست الديمقراطية فى نظرهم حكم الأغلبية ، كما ظل الناس يعتقدون إلى الآن ، بل هى حكم أولئك

فإنهم يحملون معهم الألفاظ والعبارات التى سبق لهم أن ألفوها إلى أية حالة يوجدون فيها، وبذلك تضيع أصول الألفاظ بطبيعة الحال، كما ضاعت من قبل أصول الأفراد، وساد الاضطراب اللغة كما ساد المجتمع.

لا يعزب عنى أن لتصنيف الألفاظ قواعد ليست مما يختص به شكل من أشكال المجتمع دون آخر، ولكنها قواعد اشتقت من طبيعة الأشياء. فثم عبارات حوشية مستهجنة لأن المعانى التى تتضمنها وتعبر عنها وضيعة فى ذاتها؛ ثم أخرى ذات صبغة أسمى، لأن ما تمثله من المعانى نبيل بطبيعته، ومهما اختلطت طبقات الناس ودرجاتهم بعضها ببعض، فلن يمحو اختلاطهم هذا ما بين هذه الألفاظ من فروق؛ ولكن مبدأ المساواة لابد أن يؤدى إلى هدم كل ماهو تقليدى محض، وتحكمى محض، فى أشكال التفكير، ولعل نصيب ذلك التصنيف الضرورى الذى لاغنى عنه، والذى أشرت إليه تواً، من احترام عند الشعب الديمقراطى، أقل من نصيبه عند أى شعب آخر، فليس فى مثل هذا الشعب أناس جعلتهم التربية والثقافة وما ينعمون به من فراغ، يميلون ميلاً دائماً إلى دراسة قوانين اللغات الطبيعية، ويجعلون هذه القوانين موضع احترام، بأن يراعوها هم أنفسهم.

وقبل أن أترك هذا الموضوع، أرى لزاماً علىَّ أن أشير إلى ناحية من نواحى اللغات الديمقراطية، فربما كانت هى الناحية التى تميزها أكثر من غيرها، فقد سبق أن بينت أن الأمم الديمقراطية تميل إلى تكوين المعانى العامة والمدركات الكلية، بل إنها كثيراً ما تتحمس لها كل التحمس؛ ويرجع ذلك إلى طبيعة ما بها من محاسن ونقائص. فالغرام بالمعانى العامة هذا، يتجلى فى اللغات الديمقراطية فى كثرة استعمال أسماء الجنس، أو الألفاظ المجردة، وبالطريقة التى تسلكها فى استعمالها - فهذا هو أكبر فضل لهذه اللغات، وهو أكبر عيوبها كذلك.

ويرجع غرام الشعوب الديمقراطية باستخدام أسماء الجنس والعبارات المجردة إلى أن طرق التعبير هذه توسع الفكر، وتعاون العقل على أداء عمله لأنها تشمل أشياء كثيرة فى حيز صغير. فالكاتب الديمقراطى يستعمل بارتياح وبشكل مجرد لفظ (الكفايات) capacities بدلاً من «الرجال الأكفاء» وذوى الكفايات، ومن غير أن يعين الأشياء التى تصدق عليها هذه الكفاية؛ ويتحدث عن actualities ليعبر بكلمة واحدة عن الأحداث التى تجرى فى اللحظة التى هو فيها تحت سمعه وبصره، ويضمن لفظة éventualités كل ما يمكن أن يحدث فى العالم منذ اللحظة التى يتحدث فيها. ويضع الكتاب الديمقراطيون باستمرار ألفاظاً مجردة من هذا القبيل، أو هم يستعملون ما فى لغتهم من أسماء المعانى بشكل أكثر إمعاناً فى التجويد، وأكثر من ذلك، فإنهم كى يجعلوا كلامهم أوجز، عمدوا إلى تشخيص مدلولات هذه الألفاظ بأن جعلوها تعمل كما لو كانت أشخاصاً حية، فيقولون مثلاً بالفرنسية :

La force des choses veut que les capacités gouvernent.

وخير طريقة أستطيع أن أوضح بها ما أقصد إليه أن أضرب مثلاً بنفسى، فأنا كثيراً ما استعملت لفظ المساواة بمعنى مطلق، بل كثيراً ما شخصت «المساواة» فى عدة مواضع فأرانى قلت: إن المساواة تفعل كذا وكذا أو إنها تتحاشى فعل كذا وكذا. ونستطيع أن نؤكد أن الكتاب فى عصر لويس الرابع عشر ما كانوا ليتكلموا بهذا الأسلوب إذ لم يكن يخطر ببالهم قط أن يستعملوا لفظة المساواة فى غير شىء جزئى معين. وإنهم ليؤثرون أن يتحاشوا استعمال مثل هذه اللفظة مطلقاً على أن يجعلوا لها شخصية حية.

فهذه الألفاظ المجردة التى تحفل بها اللغات الديمقراطية والتى يكثر أهل البلاد الديمقراطية استخدامها فى كل مقام دون أن يربطوها بأية حقيقة جزئية، توسع الأفكار المراد التعبير عنها، وإن كانت تجعلها غامضة غير محددة. فهى تجعل التعبير موجزاً حقاً ولكنها تجعل المعنى أقل وضوحاً. ولكن الشعوب الديمقراطية تؤثر، من حيث اللغة، الغموض على تجشم مشقة العمل والكدح لإيضاح ما يقصدون.

لست أدرى حقاً إن كان لهذا الأسلوب الركيك روعة خفية تفتن الكتاب والخطباء فى هذه البلاد الديمقراطية، وإذ كان الذين يعيشون فى هذه البلاد كثيراً ما يكون اعتماد كل منهم على مجهود عقله الفردى وحده، فقد صاروا معرضين دائماً تقريباً لأن تساورهم الريب والشكوك؛ وزيادة على ذلك، فإذا كانت مراكزهم تتغير باستمرار صاروا لا يستطيعون أبداً أن يستمسكوا بأى رأى من آرائهم على الرغم من ثبات حظوظهم واستقرارها، ومن ثم كانت آراء الناس الذين يعيشون فى البلاد الديمقراطية كثيراً ما تكون قلقة متأرجحة، ولا غرو أن صاروا بحاجة إلى تعبيرات سهلة فضفاضة كى تشمل تلك المعانى. وإذ لا يدرون أبداً إن كانت الفكرة التى يعبرون عنها اليوم تلائم الموقف الجديد الذى سيصادفهم غداً، اكتسبوا بطبيعة الحال ميلاً إلى الألفاظ المجردة. فاللفظ المجرد أو اسم المعنى، أشبه شىء بصندوق ذى قاع كاذب، تستطيع أن تضع فيه أى معان تشاء ثم تعود وتستردها منه، وأنت بمأمن من أن يشاهدك أحد.

تعد أسماء الجنس والكليات والألفاظ الدالة على المعانى المجردة أساس اللغة عند كل الأمم، فلست أدعى أن هذه الألفاظ لا توجد إلا فى لغات البلاد الديمقراطية، بل كل ما أريد أن أقوله أن الناس فى العصور الديمقراطية يميلون بصفة خاصة إلى الاستكثار منها، وإنهم يستعملونها دائماً بمدلولاتها المغرقة فى التجريد، ويستخدمونها فى كل موضع، حتى حيث لا يقتضيها المقام.

الفصل السابع عشر

بعض مصادر الشعر فى الأمم الديمقراطية

لفظة الشعر لها عدة معان مختلفة كل الاختلاف؛ فلو أنى درست مع القراء الأسباب التى تدعو إلى تفضيل المعنى الذى ينبغى أن يختار من بين هذه المعانى لأثقلت عليهم وأملتهم، ولذلك آثرت أن أبادر بأن أذكر لهم على الفور المعنى الذى اخترته، فالشعر فى رأيى، هو البحث عن المثالى وتصويره للناس.

فالشاعر هو الذى يتم عمل الطبيعة ويوسعه، بأن يحذف من الصور التى يرسمها بعضاً مما هو موجود فى الواقع، ويضيف إليها بعضاً آخر من ولائد خياله؛ وبأن يجمع فيها بين عدة ظروف معينة حقيقية، ولكنها لاتحدث فى الواقع مجتمعة، فليس هدف الشعر إذن تمثيل ما هو حقيقى، بل هدفه أن يجمل ذلك الحقيقى، ويقدم للعقل صورة أسمى منه، فالنظم من حيث هو جمال اللغة المثالى، يعد فى نظرى إذن شعراً حقيقياً، أما النظم نفسه من حيث هو نظم، فليس بشعر.

ولنبحث الآن عما إذا كان بين أفعال الأمم الديمقراطية وعواطفها وآرائها ما قد يؤدى إلى تكون فكرة ما عن المثالى، ويصح أن يعد لهذا السبب، مصادر طبيعية من مصادر الشعر.

ويجب أن نعترف أولاً بأن النزعة إلى الجمال المثالى، واللذة المستمدة من مشاهدة التعبير عنه، لاتكونان أبداً شديدتين ولا منتشرتين فى الأمة الديمقراطية بمثل انتشارهما وشدتهما فى الشعب الأرستقراطى. فقد يحدث فى الأمم الأرستقراطية أن يبدو الجسم، وكأنه يعمل من تلقاء نفسه؛ على حين تكون قدرات العقل السامية فى خمول. فمن بين هذه الأمم الأرستقراطية كثيراً ما يبدى الشعب نفسه ميولاً شعرية، فيحلق بخياله فى بعض الأحيان فوق ما يحيط به فى بيئته أو يمضى به إلى ما وراءها.

أما فى البلاد الديمقراطية، فمحبة المتعة الحسية، وميل الناس إلى العمل على تحسين أحوالهم الاجتماعية، والمنافسة، ونشوة النجاح المنتظر، كلها حوافز عدة تدفع الناس جميعاً إلى المضى قدماً فى المهن التى اختاروا أن يعملوا فيها، وما عادوا يستطيعون أن ينحرفوا عنها لحظة ما، فلا غرو أن اتجهت جهودهم العقلية الأساسية هذا الاتجاه؛ إن خيالهم

لم يخمد، ولكن وظيفته الأساسية اتجهت إلى تصور النافع والواقعي، واقتصرت عليهما وحدهما. فمبدأ المساواة لا يبعد الناس إذن عن وصف الجمال المثالي فحسب، بل ينقص عدد الموضوعات والأشياء التي يمكن أن توصف.

أما المجتمعات الأرستقراطية فقد صارت، باستبقائها المجتمع ثابتاً لا يتحرك، تعاون على بقاء الأديان الإيجابية قوية ثابتة، كما تعاون على استقرار المؤسسات السياسية، فهي لا تستبقي العقل البشري ثابتاً في دائرة اعتقاد معينة فحسب، بل توجهه إلى إيثار اعتقاد على اخر. وسيظل الشعب الأرستقراطي يميل دائماً إلى إقامة «قوى» وسطى بين الله والناس، ولا بأس من القول بأن العنصر الأرستقراطي يناصر الشعر ويلائمه من هذه الناحية، فعندما يمتلىء الكون بكائنات مما فوق الطبيعة لا تدركها الحواس، وإنما يدركها العقل وحده، ينطلق الخيال حراً يهيم أنى شاء؛ ويجد الشعراء أمامهم آلافا من الموضوعات يصورونها، كما يجدون جمهوراً كبيراً من الناس يهتم بما ينتجونه من قطع فنية.

وعلى النقيض من ذلك، قد يحدث في العصور الديمقراطية أن تظل المعتقدات الدينية قلقة مضطربة كاضطراب قوانين البلاد فيها؛ وعندئذ يعود التشكك فيهبط بخيال الشعراء من السماء إلى الأرض، ويقصر جهودهم على عالم الحس والواقع، وحتى إن كان مبدأ المساواة لا يزعزع المعتقدات الدينية، فإنه يؤدي إلى تبسيطها، وإلى إبعاد الناس عن الانشغال بالأولياء والقديسين، ويوجه الانتباه إلى الله وحده.

تدفع الأرستقراطية العقل البشري إلى التأمل في الماضي وتركيزه فيه، على حين تعمل الديمقراطية على العكس من ذلك، فتبعث في الناس شيئاً يشبه النفور الفطري من كل قديم. فالأرستقراطية تعد، من هذه الوجهة أكثر رعاية للشعر، فالأشياء تتضخم وتزداد غموضاً كلما غرقت في بعدها عنا، فهي، من أجل هذا السبب المزدوج، أعْوَنَ على تصوير الجمال المثالي.

وهكذا يحرم مبدأ المساواة الشعر من الاهتمام بجزء من الحاضر، كما حرمه من الماضي، ففي الأمم الأرستقراطية عدد من الشخصيات الممتازة الذين يبدون في أحوال كأنها خارج أحوال البشر، أو فوقها بمراحل، فتبدو لهم السلطة والثروة والشهرة والمجد والفطنة والتهذيب، والتميز في كل شيء - أموراً من نصيبهم هم خاصة، فالجمهور لا يراهم أبداً من كثب، أو أنه لا يتابعهم أبداً في شئون حياتهم التفصيلية، فلا يقتضي الأمر إذن كثيراً من الجهد ليكون وصف هؤلاء الناس موضوعاً صالحاً للشعر. ومن جهة أخرى، نجد بين هذا الشعب نفسه طبقات من الناس بلغوا من الجهل والضعف والعبودية مبلغاً كبيراً يجعلها، هي الأخرى، صالحة لأن تكون موضوعاً للشعر، لفرط ما بها من خشونة ومن بؤس، كما صلحت له الفئة الأولى بفضل ما بها من تهذيب ومن عظمة. هذا ولما كانت الطبقات المختلفة التي تتكون منها الأمم الأرستقراطية منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً كبيراً؛ فهي

لاتعرف بعضها بعضاً إلا معرفة ضئيلة. ومن ثم كان الخيال يستطيع دائماً عند تصورهم، أن يضيف أشياء إلى الصورة التى هم عليها فى الواقع، أو ينقص منها.

وفى البلاد الديمقراطية، حيث الناس توافه كلهم، لاخطر لهم[1]. ومتشابهون كل التشابه؛ فحسب الواحد منهم أن يتأمل نفسه فيرى إخوانه جميعاً، فالشعراء فى البلاد الديمقراطية لايستطيعون أبداً أن يتخذوا فرداً معيناً موضوعاً لقصيدة أو مسرحية، لأن الشىء التافه الذى يتسنى مشاهدته بوضوح من جميع جوانبه، لايصلح أبداً موضوعاً للتصور المثالى.

وهكذا ينضب مبدأ المساواة معظم مصادر الشعر القديمة، كلما رسخت قواعده وتوطدت، ولنحاول الآن أن نعرف المصادر الجديدة التى قد يكشف لنا عنها هذا المبدأ.

فبعد أن أخلى التشكك السموات من قطانها، وهبط تقدم مبدأ المساواة بكل فرد إلى نسب صغيرة معروفة تمام المعرفة؛ وقبل أن يتفطن الشعراء إلى ما ينبغى لهم أن يحلوه محل الموضوعات الكبرى التى أخذت تزول بزوال الأرستقراطية، اتجهوا بأنظارهم إلى الطبيعة الصامتة، فلما لم يعودوا يرون آلهة، ولا أبطالاً، عمدوا إلى وصف مجارى الأنهار وشوامخ الجبال، فنشأ فى القرن الماضى ذلك النوع من الشعر الذى يسمونه عادة بالشعر الوصفى، تمييزاً له على غيره. هذا، وخطر ببال بعضهم أن وصف مختلف الأشياء المادية الصامتة التى تحفل بها الأرض، وصفاً جميلاً، هو نوع من الشعر الذى تتميز به الديمقراطية خاصة، وهذا فى رأيى خطأ، فهذا النوع من الشعر من خصائص عصور الانتقال وسماتها.

وإنى لمقتنع بأن الديمقراطية سوف تحول خيال الإنسان آخر الأمر عن كل ما هو خارجى عنه، كى تركزه فى الإنسان وحده، فللشعوب الديمقراطية أن تتسلى فترة من الزمن بالتأمل فى الطبيعة، ولكنها لاتتأثر حقيقة إلا بالنظر فى نفسها هى. ففى هذه الناحية وحدها توجد إذن مصادر الشعر الطبيعية عند هذه الأمم، وقد يصدق من يقولون بأن الشعراء الذين لايستمدون وحيهم إلا منها، سيفقدون كل ما لهم من سلطان على القلوب التى يمكن أن يسترعوها، وسيتركون آخر الأمر وليس لهم سوى نظارة متزمتين جامدين.

أوضحت من قبل كيف أن فكرتى التقدم، وقابلية الإنسان للكمال قابلية لاحد لها، من سمات العصر الديمقراطية، فالشعوب الديمقراطية لاتحفل إلا قليلاً بما كان، ولكنها تحلم دائماً برؤى عما سيكون، فليس لخيالها هنا حد إذن يقف عنده، فقد اتسع وكبر حتى تجاوز كل حد. وهنا ينفسح المجال لعبقرية الشعراء انفساحاً عظيماً يتيح لهم أن ينقلوا

---

(١) هكذا يراهم المؤلف من حيث تماثلهم، وبالإضافة إلى عظمة المجتمع الذى يعملون له جميعاً، ولكن الناس فى البلاد الديمقراطية لايمكن أن يكونوا توافه فى مجتمع يشجع الفنون والصناعة والعلوم والآداب وهيأ لكل فرد الحرية فى العمل لما هو ميسر له.

ما يصنعونه مراحل بعيدة كل البعد عن العصر الذى يعيشون فيه؛ فالديمقراطية التى تغلق الماضى فى وجوه الشعراء تفتح لهم أبواب المستقبل على مصراعيها.

ولما كان جميع المواطنين الذين يتكون منهم الشعب الديمقراطى متساوين تقريباً، لم يستطع الشاعر أن يتخذ واحداً منهم موضوعاً له؛ على حين أن الأمة كلها تصلح موضوعاً طيباً لريشته، فما بين الأفراد من تشابه عام يجعل كل فرد منهم على حدة غير صالح لأن يكون موضوعاً للشعر. فهذا التشابه العام يخول للشعراء أن يدمجوا الأفراد كلهم فى صورة واحدة، وأن ينظروا، بأخرة، إلى الشعب نفسه فى جملته. فالأمم الديمقراطية تستطيع أن ترى شكلها نفسه بأوضح مما تستطيع الأمم الأخرى أن تدرك صورتها، وإن منظراً له مثل هذا الجلال ليصلح كل الصلاح لتصوير كل ما هو مثالى.

لاأتردد فى الاعتراف بأن الأمريكيين لاشعراء عندهم. ولكنى لاأسلم بأن ليس لديهم أى معان شعرية، فالناس فى أوربا يكثرون من الحديث عن برارى أمريكا، على حين لايفكر فيها الأمريكيون؛ فهم لايتأثرون بغرائب الطبيعة الصامتة حتى صح لنا أن نقول عنهم أنهم لايدركون الغابات العظيمة التى تحيط بهم إلا عندما تتهاوى أشجارها إثر ضربات فؤوس الحطابين، فأنظارهم متجهة صوب مشهد آخر: فالشعب الأمريكى مشغول بتصور مسيرته عبر هذه البرارى، يجفف مستنقعاتها، ويحول مجارى أنهارها، ويعمر قفارها بالسكان، ويقهر الطبيعة ويسخرها لما فيه مصلحته. فهذه المشاهد الرائعة لاتتجلى لخيال الأمريكيين الحين بعد الحين فحسب، بل إنها لتلاحق كل واحد منهم وتتجلى له فى أدنى أعماله شأناً، وفى أعظمها خطراً. فهى دائماً نصب عقولهم، ومدار تفكيرهم.

لاأعرف شيئاً مسيخاً هزيلاً حافلاً بالمصالح التافهة -وبعبارة أخرى لاأعرف شيئاً يناقض روح الشعر، مثل حياة الإنسان فى الولايات المتحدة. إلا أن بين الأفكار التى توحى بها هذه الحياة، فكرة حافلة بالمعانى الشعرية تعد العصب الخفى الذى يضفى النشاط على الهيكل بأسره.

إن كل شعب، وكل فرد من الأفراد فى العصور الأرستقراطية معرض بأن يقف بمعزل عن سائر الشعوب، أو عن سائر الأفراد. أما فى العصور الديمقراطية فدوام تغير أحوال الناس وتقلبها، واندفاعهم وراء تحقيق رغباتهم. تجعلهم يغيرون مراكزهم باستمرار، وتجعل سكان البلاد المختلفة يختلطون بعضهم ببعض، فيرون ويسمعون بعضهم بعضاً، وكذلك يقرضون بعضهم بعضاً. فليس أفراد المجتمع الواحد إذن هم الذين يزدادون مساواة، بل إن الجماعات نفسها لتتقارب وتتشابه وتندمج بعضها فى بعض، حتى لتتجلى فى جملتها لمن يراها على أنها ديمقراطية واحدة عظيمة، كل مواطن فيها أمة فى ذاته. وهذا يجعل البشرية تتجلى كلها لأول مرة بارزة فى جملتها للعيان. فكل مايتعلق بالجنس البشرى بأسره، وبأحواله ومستقبله، يصير مصدراً فياضاً من مصادر الشعر.

نجح الشعراء الذين عاشوا فى البلاد الأرستقراطية كل النجاح فى تصوير أحداث معينة جربت فى حياة شعب أو فى حياة فرد، ولكن لم يحاول قط شاعر منهم أن يعالج فيما يعالج مقدرات الجنس البشرى ومصائره، فهذه مهمة قد يحاول الشعراء فى البلاد الديمقراطية أن يضطلعوا بها.

ففى الوقت الذى يرفع فيه كل إنسان بصره إلى ما فوق بلاده، فيدرك الجنس البشرى، بأخرة، فى جملته، يزداد تجلى الله لعقول عباده فى كامل جلالته وسمو عظمته. فإن كان الدين الإيجابى كثيراً ما يبدو ضعيفاً فى العصور الديمقراطية، والاعتقاد بوجود «قوى» متوسطة بين الله والناس، أيًّا كان اسمها، غامضاً، فالناس من جهة أخرى يميلون إلى أن تكون فكرتهم عن العناية الربانية نفسها واسعة كل السعة، ويبدو لهم تدخلها فى شئون البشر فى صورة أجل وأروع، وإذ ينظرون إلى الجنس البشرى من حيث هو كل عظيم واحد ما، فإنهم يدركون أن سننا من هذا القبيل نفسه توجه مصائره ومقدراته، مما يجعلهم يعترفون بأنهم يرون فى أفعال كل فرد أثراً من تلك السنن الكونية الأزلية التى بها يدير الله شئون الناس، فهذا الاعتبار يصح أن يعد مصدراً آخر فياضاً من مصادر الشعر فى العصور الديمقراطية[1].

يبدو الشعراء الديمقراطيون تافهين دائماً ومسيخين، عندما يحاولون أن يفيضوا على الآلهة والشياطين، والملائكة صوراً مادية، وعندما يحاولون أن يهبطوا بهم من السماء إلى الأرض ليتنازعوا فى السيادة عليها، أما من حاولوا أن يربطوا الأحداث التى يسجلون ذكرياتها، بسنن الله العامة التى تنظم الكون، ومن غير أن يظهروا يد الخالق الأعظم فيها، إنما يكشفون بذلك عن سنن العقل الأسمى- فلو أنهم فعلوا ذلك لأعجب الناس بقصائدهم وفهموها حق الفهم، لأن خيال أهل عصرهم يتجه هذا الاتجاه من تلقاء نفسه.

يتنبأ الناس كذلك بأن الشعراء الذين يعيشون فى عصور ديمقراطية سيؤثرون أن يصوروا العواطف والآراء، على أن يصوروا الأشخاص والأعمال العظيمة، فلغة الناس فى البلاد الديمقراطية، وملابسهم، وأعمالهم اليومية كلها أمور ينفر منها خيال المثالى، لأنها ليست شعرية فى ذاتها، ولا يمكن أن تكون كذلك. فهى أمور معهودة لكل من يريد الشاعر أن يوجه إليهم قصائده عنها. وهذا مما يدفع الشعراء باستمرار إلى الغوص على المعانى التى وراء السطح الذى تدركه الحواس، كى يقرأوا ما فى صميم النفس البشرية. هذا، وليس ثمة شىء أصلح لتصوير المثالى من التنقيب فى خفايا طبيعة الإنسان غير المادية. فلست أرانى بحاجة إلى أن أجوب الأرض وأذرع السماء لأستكشف شيئاً رائعاً سداه ولحمته من المتناقضات، من عظمة وتفاهة لانهاية لهما، وظلمة حالكة ولألاء ساطع،

---

(١) يبدو أن المؤلف يشير هنا إلى La Chute d'un Ange للشاعر لامارتين وقد ظهرت سنة ١٨٣٨ قبل ظهور هذا الجزء بسنتين.

تستثير منك الرثاء والإعجاب، والرهبة والاحتقار كلها معاً، فما علىَّ إلا أن أتأمل ما يجرى فى نفسى، فالإنسان يخرج من العدم، ويقضى عمره المقسوم له، ثم يختفى إلى الأبد.

فلو أن الإنسان كان يجهل نفسه كل الجهل، لما كان فيه شيء من الشعر، فمن المستحيل أن يصف المرء شيئاً ليس لديه أية فكرة عنه، وإن أدرك طبيعة نفسه إدراكاً جلياً لبقى خياله خاملاً، ولما وجد شيئاً يضيفه إلى الصورة، ولكن طبيعة الإنسان تتجلى له على نحو يتيح له أن يدرك شيئاً من ذات نفسه، ويظل الباقى فى الوقت ذاته غامضاً تشمله ظلم متكاثفة يظل الإنسان فيها إلى الأبد، يتلمس فكرة كاملة عن نفسه أتم وأكمل؛ ولكن عبثاً.

فينبغى ألا ننتظر إذن أن يعيش الشعر فى البلاد الديمقراطية على الأساطير، أو على الذكريات والتقاليد القديمة، فلن يحاول الشاعر أن يملأ الكون بكائنات مما فوق الطبيعة، لم يعد هو، ولا قراؤه يؤمنون بها، ولا أن يشخص الفضائل والرذائل التى يؤثر المرء منا أن يراها على ما هى عليه فعلاً. فهذه المصادر كلها تعوزه، ولكن الإنسان باق، وليس الشاعر بحاجة إلى أكثر منه، فهو حسبه. إن مقدرات الجنس البشرى ومصائره، وبعبارة أخرى، مقدرات الإنسان من حيث هو إنسان، ومن غير نظر إلى بلده أو عصره، وهو واقف أمام الطبيعة وأمام الله، وبما فيه من عواطف وأهواء وشكوك - الإنسان بسعادته النادرة وبؤسه الذى يفوق حد التصور - هذا الإنسان سيصبح موضوع الشعر الأساسى فى تلك الأمم، إن لم يصبح موضوعها الوحيد.

ويتأكد لنا هذا، إذا ما اعتبرنا ما يتجه إليه فحول الشعراء الذين ظهروا منذ أن تحول العالم إلى الديمقراطية، فالمؤلفون المعاصرون الذين أبدعوا أيما إبداع فى تصوير فاوست وتشايلد هارولد Childe Harold[1] ورنيه René[2] وجوسلان Jocelyn[3]، لم يهدفوا فيما وصفوا إلى تدوين أفعال فرد وإنما قصدوا أن يكشفوا عما فى أعماق النفس البشرية من النواحى الغامضة، ويلقوا عليها أضواء تنير جوانبها.

تلك هى قصائد الديمقراطية. فمبدأ المساواة لا يهدم إذن موضوعات الشعر بأجمعها، بل يقلل من عددها، ولكنه، من جهة أخرى، يوسع مداها.

---

(١) قصيدة للشاعر الإنجليزى الرومانسى اللورد بايرون الذى توفى فى حصار ميسولونجى سنة ١٨٢٤ فى حرب استقلال اليونان عن الدولة العثمانية وكان قد نظم قصيدته المشار إليها من سنة ١٨١٢، ١٨١٨. هذا وقد ترجمت بعض قطع من هذه القصيدة إلى اللغة العربية، ترجمها إن لم أكن مخطئاً المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى.

(٢) رنيه René جزء من كتاب لفرنسوا رنيه دو شاتوبريان الأديب الفرنسى المشهور (١٧٦٨ - ١٨٤٨) عنوانه La Genie du Christianisme.

(٣) جوسلان - قصيدة طويلة للشاعر الفرنسى الرومانسى ألفونس دو لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩) نشرها سنة ١٨٣٦.

الفصل الثامن عشر

كثيراً ما يصطنع الكتاب والخطباء الأمريكيون أسلوباً مفخماً

كثيراً ما لاحظنا أن الأمريكيين الذين يتحدثون عن شئون «أشغالهم» بعبارة واضحة عادة، وإن كانت خالية جافة من كل حلية وزخرف، وبسيطة كل البساطة، حتى أنهم كثيراً ما ينزلون بها إلى الحوشية المبتذلة – كثيراً ما لاحظنا أن هؤلاء الأمريكيين يتنفجون فى أساليبهم ويفخمونها عندما يكتبون أو يتكلمون بأسلوب شعرى، فتراهم يعرضون عليك هذه الفخامة فى كل خطبة يلقونها من بدايتها حتى نهايتها، ويسرفون فى استخدام الخيال والمحسنات البديعية فى كل فرصة حتى لتتصور أنهم لايستطيعون أن يتكلموا عن شىء بأسلوب سهل بسيط .

أما الإنجليز فأقل من الأمريكيين تورطاً فى مثل هذا الخطأ، وليس يعز على أحد أن يتعرف السبب الذى أدى إلى ذلك، فكل مواطن ديمقراطى مشغول عادة بالتأمل فى شىء قمىء كل القماءة، وذلك الشىء هو نفسه، فإن حدث وسما ببصره إلى أعلى من هذا، لم ير أمامه سوى شكل المجتمع الهائل فى جملته، أو رأى ما هو أجل وأروع – منظر الجنس البشرى كله. فجميع آرائه، إما جزئية جداً وواضحة كل الوضوح، وإما عامة كل العموم، وغامضة كل الغموض، أما ما بين هذين الطرفين فخواء كله. فإن هو أخرج عن دائرته، توقع دائماً أن يعرض عليه شىء يسترعى انتباهه، فعلى هذه الشروط وحدها رضى أن ينتزع نفسه برهة من الانشغال بتلك المشاغل الصغيرة المعقدة التى يجد فيها فتنة لحياته واستثارة لنفسه .

ويبدو لى أن فى هذا ما يكفى لتفسير أن الناس فى البلاد الديمقراطية، على ما عندهم من مشاغل تافهة فى الجملة، يلجأون إلى شعرائهم يطالبونهم بمعان وتصورات واسعة كل السعة وأوصاف لاحد لها ولانهاية .

أما الكتاب فلايسعهم إلا أن يوافقوا على مسايرة اتجاهات هم أنفسهم يشاركون بها، فتراهم على الدوام يفخمون فى خيالاتهم ويتوسعون فيها حتى تتجاوز كل حد؛ وكثيراً

ما يتركون ما هو عظيم حقاً حتى يصلوا إلى ما هو ضخم هائل. لأنهم يأملون أن يجتذبوا بهذه الوسيلة اهتمام الجماهير على الفور، ويركزونه بكل يسر فى أنفسهم، ولم يك ثم ما يخيب آمالهم. فإذا كان الجمهور لا يرى فى الشعر سوى أمور جسام مترامية الأبعاد لم يكن لديه الوقت الذى يمكن له من أن يتحقق بكل دقة من صحة نسب الأشياء المعروضة على أنظاره؛ ولم يبلغ ذوقه من الدقة والسلامة ما يخول له أن يدرك فى الحال المواضع التى تتباين فيها النسب، وتشذ، وهكذا تجد المؤلف والجمهور القارىء كليهما يفسد أحدهما الآخر.

وقد رأينا من قبل أن مصادر الشعر فى البلاد الديمقراطية عظيمة، ولكنها ليست بالغزيرة الفياضة، فسرعان ما تنفد، فلما لم يجد الشعراء عناصر الجمال المثالى فيما هو واقعى وحق تركوه كله وخلقوا لنا من خيالهم عجائب فظيعة، لست أخشى على شعر الأمم الديمقراطية أن يكون مسيخاً، أو أن يظل دائماً مسفا قرب سطح الأرض لا يرتفع عنه، ولكنى أخشى عليه أن يظل ضالّا هائماً فى السحب ثم ينتهى به الأمر إلى أن يصور لنا أقاليم خيالية محضة، وكذلك أخشى على إنتاج الشعراء الديمقراطيين أن يقتصر على أن يقدم لنا الكثير من تلك الصور الخيالية الكبيرة الواسعة غير المتسقة، وأوصافاً مثقلة حافلة بالمبالغات، والمنشآت الغريبة، وأخوف ما أخافه أن تجعلنا تلك الكائنات الخيالية الغريبة التى تخرج من أدمغتهم، نأسف، فى بعض الأحيان، على وجود عالم الواقع.

الفصل التاسع عشر

ملاحظات على المسرح عند الأمم الديمقراطية

عندما تأخذ آثار الثورة التى غيرت الحالة الاجتماعية والسياسية فى البلاد الأرستقراطية فى أن تتجلى فى الأدب عند هذه البلاد، فإنها تبدو، أول ما تبدو، فى المسرحيات عادة، وتظل واضحة فيها على الدوام.

فمن يشاهد قطعة تمثيلية يدهش، بشكل ما، من الأثر الذى تخلفه فى نفسه، فهو ولا وقت عنده ليرجع إلى ذاكرته يستوضحها الأمر، ولا إلى من هم أكفأ منه وأقدر على الحكم فى مثل هذه الشئون، يستهدى بآرائهم؛ ولا هو يخطر بباله أن يقاوم الاتجاهات الأدبية الجديدة التى بدأ يشعر بها، بل صار يسلم بها حتى قبل أن يعرف ما هى.

وما أقدر المؤلفين على إدراك الناحية التى تتجه إليها ميول الجماهير خفية! فتراهم يبادرون إلى صياغة إنتاجهم بحسب ما يقتضيه اتجاه الجماهير هذا، فبعد أن تكون القطع المسرحية قد نجحت فى إنذار الناس باقتراب الثورة الأدبية التى تتهيأ للظهور تسارع هى، من جهتها، إلى إتمام هذه الثورة، فإن شئت أن تحكم سلفاً على آداب أمة أخذت تتجه نحو الديمقراطية، فما عليك إلا أن تدرس حالة[1] المسرح فيها.

وزيادة على ذلك، فالمسرحيات حتى فى البلاد الأرستقراطية ذاتها، تكون الجزء الديمقراطى من آدابهم، فليس ثمة متعة أدبية أقرب إلى متناول الجماهير من تلك التى يشعر بها المرء وهو يشاهد تمثيل مسرحية ما، فالاستمتاع بها لا يقتضى إعداداً ولا دراسة خاصة، فالمسرحية تستأثر به على الرغم مما لديه من آراء سابقة، ومن جهله بموضوعها، فعندما تأخذ محبة الاستمتاع باللذات العقلية التى لم تتهذب بعد، فى التأثير فى إحدى طبقات الشعب، دفعت بهم على الفور إلى المسرح، ومن ثم صرنا نجد مسارح الأمم الأرستقراطية تحفل دائماً برواد من غير الأرستقراطيين. ففى المسرح وحده يختلط أبناء الطبقات العالية بآخرين من الطبقتين الوسطى والدنيا، وفيه وحده، يرضى أفراد الطبقة العليا أن يستمعوا إلى آراء غيرهم من أبناء الطبقتين الأخريين، أو هم، على الأقل،

(١) ترى، هل هذه إشارة إلى النجاح العظيم الذى لاقته مسرحية بومارشيه (١٧٣٢ - ١٧٩٩) الشهيرة: زواج فيجارو (Le Enstriap de Figaro) التى مثلت لأول مرة فى باريس سنة ١٧٨٤؟.

يسمحون لهم أن يبدوا آراءهم. فالعلماء والأدباء يجدون فى المسرح، أكثر مما يجدون فى غيره، مصاعب جمة تقوم فى سبيل تغليب آرائهم وميولهم على ميول الشعب وأذواقه، كما يجدون كذلك صعوبات فى تحصين أنفسهم من أن تجرفهم ميول الشعب معه، فكثيراً ما كانت الصالة هى التى تضع القوانين «للألواج» و«البناوير».

فإن شق على الأرستقراطيين منع الشعب من أن يسيطر على المسارح أدركنا فى يسر أن الشعب هذا سيكون صاحب السلطان فيها إذا ما تسربت المبادىء الديمقراطية إلى العادات والتقاليد والقوانين، واختلطت الطبقات بعضها ببعض، وتقاربت العقول كما تقاربت الثروات، وفقدت الطبقة العليا سلطانها وتقاليدها مع ما فقدت من ثرواتها، وما كانت تنعم به من أوقات الفراغ- فعندئذ تتجلى نزعات الأمم الديمقراطية وأذواقها الخاصة فى الأدب أول ما تتجلى، فيما يمثل أمامهم من مسرحيات، أو أن نتوقع أنها ستتجلى فيه بعنف وقوة. ففى الإنتاج الأدبى المكتوب تتعدل القواعد الأرستقراطية فى الأدب وتتغير تدريجياً وفى رفق، وإن شئت قلت إنها تتعدل بطريق مشروع، أما فى المسرح فإنها تنقلب رأساً على عقب فى ضجة وفى عنف[1].

فالمسرحية تبرز معظم ما فى الأدب الديمقراطى من الصفات الطيبة. وجل ما فيه من نقائص ذاتية، فالشعوب الديمقراطية لا تقيم وزناً كبيراً للعلم الغزير، ولا هى تحفل كثيراً بما حدث فى روما أو فى أثينا، ولكنها تود أن تسمع شيئاً عما يهمها هى مباشرة، فتصوير العصر الحاضر هو كل ما تطلبه. فعندما تعرض أبطال القدامى وعادتهم على المسرح، ويراعى المؤلفون الأمانة التامة فى اتباع السوابق المأثورة، كان ذلك خير دليل على صحة القول بأن الطبقات الديمقراطية لم تنل بعد السيادة فى شئون المسرح.

لقد اعتذر راسين Racine[2] اعتذاراً كبيراً فى مقدمته التى وضعها لمسرحيته «بريتانيكوس» Britannicus، عن أنه أدخل جونيا فى عداد العذارى الحارسات، إذ لم يكن مسموحاً بقبول واحدة بينهن دون السادسة أو فوق العاشرة، كما يقول أولوس جيليوس. ومن المؤكد أن راسين ماكان بحاجة إلى اتهام نفسه، ولا إلى الدفاع عنها من أجل هذا الوزر، لو أنه كان يكتب، لمعاصرينا فى الوقت الحاضر.

فهذه الحقيقة وأمثالها لا تبين لنا حالة الأدب فى الوقت الذى حدثت فيه فحسب، بل تبين لنا كذلك حالة المجتمع نفسه، فالمسرح الديمقراطى لا يدل أبداً على أن الأمة فى حالة ديمقراطية، ذلك لأنه، كما رأينا توا، قد يحدث، حتى فى البلاد الأرستقراطية، أن تؤثر

---

(١) يقصد المؤلف بالقواعد الأرستقراطية هنا تلك القواعد المرعية فى الآداب الكلاسيكية. وقد تكون الإشارة إلى الضجيج والعنف إشارة الى ما حدث عند تمثيل رواية فيكتور هوجو: (١٨٠٢ - ١٨٥٢) هرنانى (Hernani) سنة ١٨٣٠ التى خرج فيها على نظام الدراما الكلاسيكى.

(٢) راسين: جان راسين الشاعر الفرنسى (١٦٣٩ - ١٦٩٩) وقد وضع مسرحيته التراجيدية «بريتانيكوس ريقاللوس» هذه سنة ١٦٦٩.

الأذواق الديمقراطية فى الدراما والتمثيل، ولكن عندما تكون الروح الأرستقراطية وحدها هى التى تسود المسرح، فهذا يدلنا قطعاً، على أن المجتمع كله أرستقراطى. ويصح لنا أن نغامر ونستنتج من ذلك أن طبقة العلماء والأدباء التى توجه الكتاب المسرحيين تكون هى نفسها صاحبة السلطان على الشعب، بل وعلى الحكم فى البلاد.

فأذواق الأرستقراطيين الرفيعة المهذبة، وسلوكهم المستعلى المتعجرف، قلما تفشل فى دفع الأرستقراطيين، هؤلاء، إذا ما وكلت إليهم إدارة المسرح، إلى أن يختاروا نوعاً مما فى الطبائع البشرية؛ فبعض أحوال المجتمع تتطلب أن يعرض على المسرح الموضوع الرئيسى الذى تهتم به، وعندئذ تصبح المناظر التى تصور آدابها وأخلاقها هى المفضلة على سواها، فثم فضائل معينة، بل وبعض رذائل معينة كذلك، يرون أنها جديرة بالعرض على المسرح، ومن ثم يكون نصيبها من النظارة الاستحسان فتنتزع منهم التصفيق انتزاعاً، أما سائر الفضائل والرذائل فتستبعد ولا تعرض على المسرح، فالنظارة الأرستقراطيون لا يودون أن يشاهدوا على المسرح، أو فى غيره، سوى الأشخاص الممتازين، ولا يحركهم سوى ما يصيب الملوك من كوارث، هذا، وتصدق هذه الملاحظة على الأسلوب نفسه. فقد يميل الأرستقراطيون إلى أن يفرضوا على المؤلفين المسرحيين قواعد معينة للتعبير تكشف عن الاتجاه الذى يجب أن يراعى فى كل ما يلقى، فكثيراً ما يصبح المسرح بهذه الوسائل، ولا يصور غير جانب واحد من جوانب حقيقة الإنسان، وقد يصور أحياناً ما لا يوجد فى الطبيعة البشرية على الإطلاق، وبذلك نراه يسمو عليها أو يتجاوزها إلى ما وراءها.

أما فى البلاد الديمقراطية، فليس لدى النظارة أمثال هذه الميول التى تجعلهم يفضلون هذا كله على ذاك، وقلما يظهرون أى نفور من هذا القبيل، بل يحبون أن يشاهدوا على المسرح ذلك الخليط من الأحوال والمشاعر والوجدان والآراء، التى تقع تحت أبصارهم، وتصبح المسرحية أحفل بالمدهش والحوشى والصادق والواقعى. ومع ذلك فقد يحدث أحياناً أن يجاوز كتاب المسرحيات فى البلاد الديمقراطية حدود الطبيعة البشرية، ولكنهم يجاوزونها من ناحية أخرى غير التى يجاوزها منها الذين سبقوهم: ففى سعيهم وراء أن يمثلوا بتفصيل دقيق غرائب اللحظة الحاضرة، والسمات الخاصة التى يمتاز بها البعض، يغفلون أن يصوروا ملامح الجنس البشرى العامة.

فإذا تحكمت الطبقات الديمقراطية فى شئون المسرح أجازت ترخيصاً وحرية كبيرة فى طرق معالجة الموضوعات، كما أجازتها فى اختيار الموضوع نفسه. ولما كان التمثيل أقرب جميع مناحى الأدب إلى الطبيعة فى نظر الأمم الديمقراطية، كان عدد المؤلفين والمتفرجين، وكذلك عدد ما ينتج من التمثيليات، فى ازدياد مستمر عند هذه الأمم. فمثل هذا الجمهور الذى يتكون من عناصر مختلفة كل الاختلاف ومبعثرة فى كثير من المواضع المختلفة- لا يستطيع أن يعترف بقواعد واحدة، ولا أن يذعن لقوانين واحدة فلا مجال للاتفاق بين

قضاة كثيرين كل الكثرة، لايعرفون متى سيجتمعون مرة أخرى؛ ومن ثم كان كل منهم يصدر حكمه على القطعة التى شاهدها مستقلاً عن غيره، فإن كان تأثير الديمقراطية عادة التشكك فيما لجميع القواعد والتقاليد الأدبية من سلطان، فإنها تلغيها كلها من على المسرح، ولا تحل محلها سوى هوى المؤلف وهوى الجمهور .

كذلك تبين الروايات التمثيلية بوجه خاص، صدق ما ذكرته بشكل عام عن الأسلوب والفن فى الأدب الديمقراطى، فعندما نقرأ الانتقادات التى استدعتها المسرحيات التى ظهرت فى عصر لويس الرابع عشر، يدهشنا أن ندرك ذلك الاهتمام العظيم الذى يوجه الجمهور إلى مسألة احتمال حدوث القصة وعدم احتمالها، وتلك الأهمية التى يعلقها على ضرورة انسجام كل شخصية مع نفسها، فمادام الإنسان هو الإنسان دائماً فيجب ألا يصدر منه على المسرح شيء مما لا يتأتى شرحه وفهمه فى سهولة ويسر. هذا، والقيمة التى يجعلونها لمراعاة اللغة المستعملة فى ذلك العصر، وتلك الخصومات التافهة التى تقوم بين المؤلفين المسرحيين بشأن الألفاظ -لتدهشنا كذلك أيما دهشة. فالناس فى عصر لويس الرابع عشر قد بالغوا كل المبالغة فيما يعلقونه من أهمية على التفصيلات الفرعية الدقيقة التى يتيسر للمؤلف أن يدركها وهو فى حجرة مكتبه، ولكنها لاتسترعى انتباه النظارة فى المسارح، ذلك لأن الغرض الأساسى من كل قطعة مسرحية أن تمثل، وأن فضلها الأكبر محصور فى أنها تؤثر فى الجمهور وتحركه، ولكن الكثرة من النظارة كانوا فى ذلك العصر من القراء أيضاً، فعندما يغادرون المسرح يستدعون المؤلف إلى ندوة تعقد فى بيوتهم ليحكموا له أو عليه وهم جلوس حول موائدهم .

تجد المسرحيات فى البلاد الديمقراطية من يصغى إليها، ولكنها لاتجد من يقرؤها، فالغالبية من رواد المسارح لايرتادونها سعياً وراء المتع العقلية، بل حباً فى ماتستثيره فيهم من الانفعالات والعواطف القلبية. فهم لايتوقعون إذن أن يجدوا تحفة أدبية رفيعة، بل أن يشاهدوا مسرحية تمثل أمامهم، ومادام المؤلف يصطنع لغة بلاده ويستخدمها على الوجه الصحيح المألوف الذى يجعلها مفهومة للنظارة، ومادامت شخصيات مسرحيته تستثير فيهم الفضول، وتوقظ العطف والمشاركة الوجدانية فى نفوسهم، فهم راضون، ولا يطلبون المزيد من القصص الخيالية، بل سرعان ما يعودون إلى الحياة الواقعية، فليست دقة الأسلوب إذن هى كل ما يطلبونه لأن التزام قواعده من أقل ما يشاهد على المسرح .

أما من حيث احتمال القصة أو عدمه، فأمر لايمكن أن يتلاءم دائماً مع الجدة والمفاجأة وسرعة الاختراع، ولذلك كان نصيبه أن يهمل، وقد تسامح الجمهور نفسه فى هذا الإهمال، فكن واثقاً تمام الثقة من أنك إن نجحت فى حمل النظارة على الحضور لمشاهدة شيء يتصل بهم ويؤثر فيهم، فإنهم لايحفلون بأى طريق جئت بهم إلى المسرح، ولا يعيبون عليك مطلقاً أنك قد استثرت انفعالاتهم على الرغم من عدم مراعاتك قواعد الدراما .

وعندما يذهب الأمريكيون إلى المسرح تتجلى فيهم، بشكل بارز كل البروز، كل تلك الميول والنزعات التى وصفتها توا، ولكن يجب أن نعترف بأن الذين يرتادون المسارح منهم لا يزالون إلى الآن قلة. ومع أن عدد رواد المسارح، وعدد المسارح نفسها، قد ازداد فى الولايات المتحدة فى الأربعين سنة الأخيرة فما زال الجمهور لا ينهمك فى هذا النوع من التسلية إلا بتحفظ شديد، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب خاصة سبق أن مرت بالقارىء، فحسبنا هنا بضع كلمات تذكره بها ليس إلا.

لم يكن «المتطهرون» الذين أقاموا الجمهوريات الأمريكية خصوماً للملاهى فحسب، بل كانوا يشعرون بنفور خاص من المسرح، ويعدونه مسلاة بغيضة، وما دامت مبادئهم مسيطرة على الشعب، لا تنازعها مبادىء أخرى، فقد ظل التمثيل غير معروف عندهم ألبتة. كانت هذه آراء الآباء الأولين الذين أقاموا المستعمرات الأمريكية وقد تركت آثاراً عميقة فى نفوس ذويهم.

إن الاستمساك الشديد بالعادات؛ وبالصرامة فى الأمور الأخلاقية، الأمرين اللذين يشاهدان فى الولايات المتحدة، لم يكونا إلى الآن مما يشجع على ترقى الفن المسرحى، فليس ثم موضوعات تصلح للتمثيل فى بلاد لم تشاهد كوارث سياسية فادحة، حيث الحب يؤدى إلى الزواج بطريق سهل مستقيم. فالناس الذين يقضون كل يوم من أيام الأسبوع فى جمع المال، ويوم الأحد فى الذهاب إلى الكنيسة، لا يكون لديهم شىء يجعل آلهة الكوميديا تستجيب إلى دعواتهم.

وحسبنا حقيقة واحدة لبيان أن المسرح لا يحظى بمحبة كبيرة من شعب الولايات المتحدة. فالأمريكيون الذين تخول قوانينهم للناس أقصى مدى من حرية التعبير فى كل شىء، بل إنها لتسمح بها إلى درجة الاستهتار، نراهم، مع ذلك، قد أخضعوا كتابهم المسرحيين لنوع من الرقابة، فلا يسمح بتمثيل آية مسرحية إلا بعد الحصول على ترخيص من السلطات البلدية فيها. وهذا يوضح لنا تمام التوضيح، أن الشعوب كالأفراد يستسلمون تمام الاستسلام لشهواتهم المستولية عليهم، وبعد ذلك يحرصون كل الحرص ألا يغالوا فى الاستسلام إلى تلك الميول والأذواق التى ليس لديهم منها شىء.

ليس ثمة جزء من الأدب يرتبط بأحوال المجتمع الحاضرة بروابط أوثق أو أكثر عدداً من الأدب المسرحى، فمسرحيات عصر لا تتلاءم مع أحوال العصر الذى يليه، إن حدثت فى الفترة التى بين العصرين ثورة هامة غيرت من عادات الأمة الأخلاقية وبدلت من قوانينها.

حقاً إنا مازلنا نقرأ ما كتبه كبار المؤلفين فى عصر سابق على العصر الذى نحن فيه، ولكن المسرحيات التى وضعت لجمهور غير جمهورنا لا تسترعى الناس وتجتذبهم إلى الإقبال على مشاهدتها؛ فالمؤلفون المسرحيون السالفون لم يعودوا يعيشون الآن إلا فى بطون الكتب وحدها.. قد يحدث أن ذوق بعض الأفراد التقليدى أو الغرور أو «الموضة» أو عبقرية ممثل موهوب - قد تحيى المسرحيات الأرستقراطية فى عصر ديمقراطى، وتستبقيها تمثل على المسرح فترة من الزمن، ولكنها سرعان ما تسقط (هذه المسرحيات) من تلقاء نفسها، فتمثيلها لا يمنع، ولكن الناس يهجرونها هجراً.

الفصـــل العشـــرون

بعض خصائص المؤرخين فى العصور الديمقراطية

يميل المؤرخون الذين يعيشون فى العصور الأرستقراطية إلى إرجاع الأحداث كلها عادة إلى إرادة أفراد معينين وإلى أمزجتهم، ويعزون أهم الانقلابات والثورات إلى أحداث صغار، فتراهم يظهرون ذكاء فى تتبع الأسباب التافهة، على حين يغفلون عن إدراك أهمها.

أما المؤرخون الذين يعيشون فى العصور الديمقراطية فيبدون ميولاً وخصائص عكس ما يبديه أولئك على خط مستقيم، فمعظمهم لايكادون يعزون إلى الأفراد أى تأثير على مصائر الجنس البشرى، ولا إلى المواطنين على مصائر الشعب، ولكنهم من جهة أخرى، يعزون أسباباً عظيمة هامة إلى جميع الأحداث الصغيرة.. فهاتان نزعتان متقابلتان تفسر إحداهما الأخرى.

فعندما يدرس مؤرخ العصور الأرستقراطية مسرح الأحداث لايلبث أن يدرك أن عدداً ضئيلاً من الممثلين البارزين يضطلعون بإدارة القطعة المسرحية كلها، فهذه الشخصيات العظام التى تشغل صدر المسرح تسترعى انتباه النظارة وتركزه فى نفسها هى. هذا، وبينما يجعل المؤرخ كل همه فى أن ينفذ إلى صميم الدواعى الخفية التى تحفز هذه الشخصيات إلى الكلام، وتدفعها إلى العمل، إذا به يغفل شأن سائرهم. فأهمية الأشياء التى يضطلع بها بعض الناس تجعل المؤرخ الأرستقراطى يبالغ فى تقدير ما قد يكون للشخص الواحد من نفوذ، وبالطبع يدفعه ذلك إلى أن يظهر أن عليه، كى يفسر دوافع الجمهور ونزعاته، أن يرجعها كلها إلى ما لفرد واحد من نفوذ خاص.

وعلى العكس من ذلك عندما يكون جميع المواطنين مستقلين بعضهم عن بعض، وكل واحد منهم ضعيف، من حيث هو فرد، فإن أحداً منهم لا يستطيع أن يكون له على الجماعة نفوذ كبير، فضلاً عن سلطان دائم عليهم هذا. وقد يبدو الأفراد لأول وهلة أنهم لانفوذ لهم مطلقاً على الجماعة. فيخيل للناس أن الجماعة تتقدم وحدها بالعمل الحر الاختيارى الذى يقوم به جميع الناس الذين تتكون منهم هذه الجماعة، مما يدفع العقل البشرى بالطبع إلى البحث عن السبب العام الذى أثر هكذا فى كثير من قدرات الناس دفعة واحدة، ووجههم جميعاً فى آن واحد نحو اتجاه واحد.

إنى مقتنع كل الاقتناع بأن ما لدى بعض الأفراد فى الأمم الديمقراطية نفسها من عبقرية أو من رذائل أو فضائل، قد يعطل المسرى الطبيعى لتاريخ الشعب ومقدراته، أو يستعجله. ولكن هذا النوع من الأسباب الثانوية والعرضية متنوعة كل التنوع وخفى ومعقد وضعيف، ومن ثم كان تتبع هذه الأسباب وتبين كنهها فى عصور المساواة أشق منه فى العصور الأرستقراطية، حيث تكون مهمة المؤرخ أن يفصل من جملة الأحداث العامة، تأثير رجل معين أو تأثير فئة من الناس فحسب، فسرعان ما يمل المؤرخ مثل هذا العمل، ويضل عقله فى تلك المتاهة. وإذ يرى أنه قد عجز عن أن يدرك تأثير الأفراد هذا إدراكاً صحيحاً، وإظهاره بشكل واضح، صار ينكر وينفى أن لهم تأثيراً، ويفضل أن يتحدث إلينا عن طبائع الأجناس البشرية، وعن جغرافية البلاد الطبيعية، وعن روح الحضارة، وبذلك يخفف عنهم عبء العمل ومشقاته، ويرضى قارئه إرضاء أتم بتكاليف أقل.

قال لافاييت[1] فى موضوع ما من مذكراته Memoirs إن مغالاة الناس بنظام الأسباب العامة يعزى أوساط الساسة الذين من المرتبة الثانية كل العزاء. وأضيف إلى ذلك أن هذا يؤدى بأوساط المؤرخين إلى نتائج ليست أقل غرابة وعجباً، فهذا النظام يستطيع دائماً أن يقدم لهم بضعة أسباب قهرية تخلصهم من أشق جزء من كتابهم، وتعاون ما فى عقولهم من خمول، أو من عجز؛ وفى الوقت نفسه تضفى على هؤلاء المؤرخين شرف التفكير العميق.

أما من جهتى، فأرى أنه لا يوجد عصر يمكن أن يعزى فيه جزء من الأحداث التى تجرى فى هذا العالم إلى حقائق عامة جداً، وعصر آخر يعزى فيه إلى مؤثرات جزئية خاصة كل الخصوص. فهذان النوعان من الأسباب يعملان باستمرار، ولا يختلفان إلا من نسبة أحدهما إلى الآخر، فالحقائق العامة تصلح لتفسير أشياء أكثر فى العصور الديمقراطية عنها فى العصور الأرستقراطية. أما الأشياء الأقل فتعزى عندئذ إلى المؤثرات الفردية، وفى العصور الأرستقراطية نجد العكس، فالمؤثرات الخاصة تكون أقوى وأعظم، على حين أن عمل الأسباب العامة يكون أضعف، اللهم إلا إذا اعتبرنا الظروف نفسها عاملاً يخول لبعض الأفراد أن يخالفوا نزعات سائر المؤرخين الفطرية.

فالمؤرخون الذين يعنون بوصف ما يجرى فى البلاد الديمقراطية على حق إذن، فى أن يعزوا الكثير إلى الأسباب العامة، وفى أن يوجهوا معظم انتباههم إلى استكشاف هذه الأسباب، ولكنهم مخطئون فى إنكارهم كل الإنكار ما للأفراد من تأثير خاص، لمجرد أن تتبع هذا التأثير ومعرفته ليس من السهولة فى شىء.

---

(١) هو المركيز دو لافاييت (١٧٥٧ - ١٨٣٤) - وكان قد تطوع فى جيش التحرير الأمريكى بقيادة جورج واشنطن، ثم اشترك فى الثورة الفرنسية وكان ينصح بالاعتدال حتى اضطر إلى مغادرة فرنسا ولم يعد إليها إلا بعد سبع سنوات ولم يشارك فى الحياة العامة فيها إلا بعد سقوط نابوليون فاشترك فى ثورة ١٨٣٠، أما مذكراته التى يشير إليها المؤلف فقد نشرت سنة ١٨٣٤.

والمؤرخون الذين يعيشون فى العصور الديمقراطية لاينزعون إلى تعيين سبب عظيم لكل حدث يحصل فحسب، بل إنهم يميلون كذلك إلى ربط الأحداث بعضها ببعض ربطاً يؤدى إلى استنباط نظام منها.. أما فى العصور الأرستقراطية فيتجه انتباه المؤرخين دائماً إلى الأفراد، على حين يفوتهم ما بين الحوادث من ترابط، أو بعبارة أخرى، إنهم لايعتقدون بوجود شيء من قبيل هذا الترابط، فسمط التاريخ يبدو لهم أنه ينقطع فى كل لحظة بانقطاع حياة الفرد؛ والأمر على العكس من ذلك فى البلاد الديمقراطية، حيث يرى المؤرخ من الأعمال والأحداث أكثر مما يرى من الأفراد الذين يقومون بها، فيسهل عليه كل السهولة أن يقيم نوعاً من التوالى والتواتر بين تلك الأحداث.

ليس فى الآداب الكلاسيكية القديمة التى خلفت لنا الكثير من المؤلفات التاريخية الرائعة أى نسق عظيم من الأنساق التاريخية، على حين أن أفقر الآداب الحديثة ليحفل بأمثال هذه النظم، ويبدو أن قدامى المؤرخين لم يستخدموا استخداماً كافياً تلك النظريات العامة التى ينزع كتابنا المؤرخون إلى الإسراف فيها.

هذا وللمؤرخين الذين يكتبون تواريخهم فى عصور ديمقراطية، نزعة أخرى أشد خطراً، فإذا ما ضاعت آثار عمل الفرد فى الأمة فإنا كثيراً ما نجد العالم يظل يتحرك من دون أن تظهر القوة التى تحركه سافرة. ولما كان من الصعوبة بمكان أن نميز ونحلل الأسباب التى، وهى تؤثر فى إرادة كل فرد من أفراد الأمة، تتحد فى النهاية وتحمل على استحداث حركة فى الأمة برمتها، فإن الناس ينساقون إلى الاعتقاد بأن هذه الحركة غير إرادية وأن الجماعة تخضع على غير إرادتها لقوة عليا تسيطر عليها؛ بل وحتى عندما نظن أن الحقيقة العامة التى تسيطر على جميع الأفراد قد تم استكشافها فى هذه الدنيا، فإن مبدأ حرية الإرادة لايصير بذلك مبدأ يقينياً. إن سبباً يؤثر فى ملايين الناس دفعة واحدة، وقوياً كل القوة حتى إنه يوجههم جميعاً قسراً فى اتجاه واحد، ليبدو شيئاً لايمكن مقاومته، فبعد أن يدرك العقل أن الناس يستسلمون لهذا السبب فعلاً ويذعنون له فإنه ليكاد يستنبط أن البشر لاقبل لهم بمقاومته.

لاينكر المؤرخون الذين يعيشون فى البلاد الديمقراطية إذن أن لبعض المواطنين قدرة على التأثير فى مقدرات الشعب ومصائره، بل إنهم ليجردون هذا الشعب نفسه من أية قدرة على تعديل أحواله الخاصة به، ويعزون مصائره كلها إما إلى مشيئة إلهية لامرد لحكمها، وإما إلى ضرورة عشواء. فهم يرون أن كل أمة مقدور عليها، بطبيعة موقعها وأصلها وتاريخها وأخلاق أهلها - مصير معين لاتستطيع أية جهود أن تغيره وتحوره. ومن ثم تراهم يربطون كل جيل بالذى قبله، ويظلون يرجعون بنا من جيل إلى جيل حتى يصلوا بنا إلى أصل العالم ونشأته، وبذلك ينشئون سلسلة هائلة محكمة تحيط بالجنس البشرى كله، وتربطه كله بعضه ببعض. إنهم لم يكفهم أن يبينوا أسباب ما يجرى من أحداث، بل أرادوا

أن يظهروا لنا أنها ما كانت لتستطيع أن تحدث بشكل آخر غير الذى حدثت به. فهم يختارون أمة وصلت إلى مرحلة من مراحل تاريخها ثم يؤكدون لنا أنها لم يكن يسعها إلا أن تسلك الطريق الذى سلكت وأدى بها إلى أن تبلغ ما بلغت، فتقرير ذلك أيسر عليهم كل اليسر من أن يبينوا لنا كيف يكون فى وسع هذه الأمة أن تختار لها طريقاً آخر أفضل مما اختارت أن تسلكه.

وعندما نطالع ما كتبه مؤرخو العصور الأرستقراطية، وبخاصة القدامى منهم، يخيل إلينا أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى أن يكون سيد نفسه، لكى يسيطر على توجيه مصيره، ويحكم بنى جنسه، وعندما نقرأ كتب التاريخ التى وضعت فى عصرنا يبدو لنا فيها أن الإنسان لا حول له ولا قوة، لا على نفسه ولا على كل ما حوله. لقد علم مؤرخو العصور القديمة الناس كيف يأمرون، أما مؤرخو عصرنا فلم يعلموهم سوى أن يطيعوا، فكثيراً ما يبدو المؤلف منهم فى كتاباته عظيماً، ولكن بنى البشر أنفسهم ضئال كل الضآلة.

فإذا حدث وانتقل مذهب الضرورة الحتمية هذا، وهو مذهب حبيب إلى قلوب المؤرخين فى العصور الديمقراطية - انتقل من المؤلفين إلى قرائهم، حتى يعدى الجماعة كلها، ويستولى على عقل الجماهير، فإنه سرعان ما يشمل نشاط المجتمع الحديث.

وزيادة على ذلك فأمثال هذه المذاهب خطرة بوجه خاص فى عصرنا هذا، فأهله ميالون إلى التشكك فى حرية إرادة البشر لأن كل واحد منهم يشعر بأنه مقيد من كل جانب بضعفه الخاص؛ إلا أنهم لا يزالون مع ذلك مستعدين للاعتراف باستقلال الناس وقوتهم، ماداموا متحدين فى مجتمع. فلنجعل هذا المبدأ نصب أعيننا، إذن، لأن الهدف الأكبر فى عصرنا الآن هو النهوض بنفوس الناس والسمو بها، وليس إكمال إخضاعها وإذلالها.

الفصل الحادى والعشرون

البلاغة البرلمانية فى الولايات المتحدة

الناس فى البلاد الأرستقراطية متصلون كلهم بعضهم ببعض، ويعتمدون بعضهم على بعض؛ ففيها نظام متدرج للمراتب والمقامات، يربطهم جميعاً، ويتطلب من كل واحد منهم أن يلتزم مكانته ولا يتعداها، كما يتطلب من الأمة كلها أن تظل خاضعة طيعة.. ولا تخلو مجالس هذه الأمم السياسية من شىء من هذا النظام. فكل حزب من أحزابها منضو بطبيعة الحال تحت حكم زعيم معين يذعن له كل أعضاء الحزب مدفوعين بدافع يكاد يكون غريزياً، وإن نشأ فى الواقع من عادات اكتسبوها فى مجالات أخرى.. وبذلك ينقلون عادات المجتمع الكبير إلى المجتمعات الصغرى كالمجالس وغيرها.

وكثيراً ما يحدث فى البلاد الديمقراطية أن يتجه عدد كبير من المواطنين نحو نقطة واحدة بعينها، وإن كان كل واحد منهم يسير نحوها من تلقاء نفسه وهو يخادع نفسه على الأقل. فيقول إنه إنما يسير إليها من غير أى دافع خارجى. فلما كان قد اعتاد الاستقلال بتوجيه سلوكه وتصرفاته، وينظمها بحسب دوافع ثابتة من ذات نفسه هو. صار يضيق ذرعاً بأى إملاء يفرض عليه.. فهذا الميل إلى الاستقلال، وعادة ممارسته باستمرار يلازمان المرء منهم فى مجالس الأمة؛ فإن قبل أن يتفق مع آخرين على تحقيق غرض معين. آثر أن يترك شأنه حراً فى العمل على إنجاح العمل المشروع بطريقته هو الخاصة على الأقل. ومن ثم كانت الأحزاب فى البلاد الديمقراطية تأنف من الرقابة والإشراف فلا تستطيع الصبر على توجيهات زعمائها ولا تسلس لهم قيادتها إلا فى لحظات الخطر الداهم العام الشديد. وحتى هنا، نجد سلطة الحكومة التى قد تتمكن من جعل الناس فى هذه الظروف الحرجة يتكلمون ويعملون، لا تستطيع أن تحملهم على أن يلتزموا الصمت.

ولا يخفى أن أعضاء المجالس السياسية فى الأمم الأرستقراطية يختارون عادة من الأرستقراطيين أنفسهم، وكثيراً ما يكون المركز الذى يشغله العضو منهم فى المجالس فى نظره دون ذلك الذى يتبوأ بطبيعة حقه الخاص فى البلاد، مما يعزيه كل العزاء عن عدم قيامه بدور مرموق فى مناقشات الشئون العامة فى المجالس، ويمنعه من التلهف على القيام بأى دور ثانوى فيها.

أما فى أمريكا فكثيراً ما يحدث ألا يكون للنائب أى شأن يذكر إلا بفضل مركزه فى المجلس، ومن ثم كانت حاجته الدائمة إلى مكانة مرموقة فيه تعذبه وتقض مضجعه، فهو يشعر برغبة ملحة تدفعه إلى مقاطعة زملائه الأعضاء كى يقحم هـو آراءه ويبرزها. هذا وليس غروره وحده الذى يحمله على مواصلة السير فى طريقته هذه، بل لا ننسى غرور أهل دائرته الانتخابية، ولا الضرورة التى تقضى النائب أن يعمل على إرضائهم باستمرار. أما فى الأمم الأرستقراطية فيندر أن نجد عضواً من أعضاء المجلس يعتمد كل الاعتماد على الناخبين من أهل دائرته؛ فهو فى نظرهم لا يعدو أن يكون ممثلاً لهم لا غنى عنه بشكل ما، وقد يكونون هم أنفسهم المعتمدين عليه الاعتماد كله فى بعض الأحيان، فإن هم رفضوا فى النهاية أن يعيدوا انتخابه، فمن السهل عليه أن ينتخب فى دائرة أخرى، أو أن يتنحى عن الحياة العامة، ويحيا حياة كلها كسل وفراغ، ولها مع ذلك روعتها وبهجتها له. أما فى دولة ديمقراطية مثل الولايات المتحدة فمن المتعذر أن يكون للنائب أى سلطة دائمة على عقول ناخبيه، فمهما كان عدد الناخبين فى دائرته صغيراً، فعدم استقرار أمور الديمقراطية، يجعله يكيف نفسه بحسب الأحوال، ويعمل ما فى وسعه لإرضاء ناخبيه والتقرب إليهم باستمرار، لأنه لا يستطيع أن يستوثق دائما من أنصاره، فإن حدث وانفضوا من حوله، وجد نفسه وحيداً لا موارد له يعتمد عليها؛ فمركزه الطبيعى ليس من السمو بحيث يجعله معروفاً بسهولة لغير الذين على كثب منه. هذا، وفى ذلك الاستقلال الكامل الذى يعيش فيه المواطنون، لا يستطيع أن يأمل أن يفرضه أصحابه، أو تفرضه الحكومة نفسها، على دائرة انتخابية لا تعرفه. فمصيره مرتبط بدائرته الانتخابية التى يمثلها إذن، وعليه أن يبدأ من هذا الركن من العالم ويرتفع بنفسه ليحكم الشعب، ويؤثر فى مصائر العالم كله.. فطبيعى إذن أن يفكر أعضاء المجالس السياسية فى البلاد الديمقراطية فى ناخبيهم، على حين يفكر أعضاء المجالس فى البلاد الأرستقراطية فى مصالح حزبهم أكثر مما يفكرون فى إرضاء ناخبيهم.

ومن ثم كان الذى ينبغى أن يقوله النائب لإرضاء الناخبين من أهل الدائرة ليس دائماً ما يجب أن يقال فى سبيل خدمة الحزب الذى ينتمى إليه خدمة صادقة، ولا هو بالرأى السياسى الذى يقول به أعضاؤه، وكثيراً ما تقضى مصلحة الحزب العامة ألّا يتحدث النائب الذى ينتمى إليه فى المسائل الكبرى التى لا يفهمها حق الفهم؛ وألا يتكلم إلا قليلاً فى المسائل الصغيرة التى تعوق سير المسائل الكبرى أو تربكها؛ وعليه أخيراً ألّا يتكلم أبداً فى معظم الأحوال. فقد يكون التزامه الصمت أكبر خدمة يقدمها لبلاده خطيب قليل الكفاية.

ومع ذالك فالناخبون من أهل الدائرة لا يرون فى نائبهم أن يكون على هذا النحو. فقد اختاروه نائباً عنهم ليشارك بنصيب فى حكومة البلاد؛ ففكرتهم فى مقدرته عظيمة بالغة. وإذ كان الناس يبدون عادة أعظم شأناً كلما كان ما حولهم أصغر وأدنى منهم، جاز لنا أن نقول إن الفكرة التى يكونونها عن النائب تتضخم وتصبح أعلى بكثير كلما قلت

المواهب فى أهل الدائرة التى يمثلها. ومن ثم فكثيراً ما يحدث أن يزداد أمل الناخبين فى تحقيق ما ينتظرونه منه كلما قل ما يجب أن يتوقعوه من نائبهم، ومهما كان هذا النائب قليل الكفاية، فإنهم لا يترددون فى أن يطالبوه ببذل جهود جبارة تتناسب مع المرتبة التى رفعوه إليها.

وزيادة على مركز النائب، من حيث هو أحد المشرعين للولاية، فالناخبون يعدونه راعى دائرتهم وحاميها الطبيعى فى المجلس التشريعى، بل إنهم ليعتبرونه عادة وكيلاً عن كل ناخب منهم أيده فى الدائرة - وإنهم ليخادعون أنفسهم باعتقادهم أنه لن يكون أقل غيرة فى دفاعه عن مصالحهم الخاصة عن تحمسه للدفاع عن مصالح البلاد جمعاء. ومن ثم كان الناخبون واثقين سلفاً من أن نائبهم الذى وقع عليه اختيارهم سيكون خطيباً مفوهاً وأنه سيتكلم كثيراً كلما استطاع إلى الكلام سبيلا.. وأنه فى الحالات التى يضطر فيها إلى الامتناع عن الكلام سيحاول، مع ذلك أن يوجز فى خطبه، على قلتها، بحث جميع المسائل الكبرى التى تهم الولاية، ويذكر فيها جميع ما يشكون منه من المتاعب الصغيرة، فعليه أن ينتهز كل فرصة تتاح له ويعلن للناس ما هو قادر على أن يعمله، وبدلاً من أن يظل يسرف فى جهوده وقواه، عليه أن يركزها فى بعض الأحيان فى حيز صغير حتى يقدم لأهل دائرته الانتخابية أو لنفسه هو أيضاً، خلاصة كاملة رائعة. فهم على هذا الأساس يعطونه أصواتهم فى الانتخابات التالية.

هذه أحوال تدفع الرجال المخلصين المتوسطى الكفاية إلى اليأس، فإنهم لعلمهم بمدى قدراتهم، ما كانوا يتقدمون للخطابة أبداً لولا الإلحاح عليهم، وعندما يتقدم النائب إلى منصة الخطابة ويأخذ فى الكلام فيملأ قلوب أصدقائه خوفاً عليه، وعندما يتدهور ويندفع ويلقى بنفسه وسط مشاهير الخطباء فإنه يربك المناقشة ويسئم المجلس ويرهقه.

فجميع القوانين التى تؤدى إلى جعل النائب معتمداً على الناخبين لا تؤثر فى مسلك المشرعين فحسب، بل، كما أشرت فى موضع آخر، تؤثر كذلك فى اللغة والعبارات التى يستخدمونها، فهى تؤثر فى المسائل والموضوعات نفسها، وفى الطريقة التى تناقش بها.

فلا يكاد يوجد عضو واحد من أعضاء الكونجرس يرضى بالعودة إلى بلده قبل أن يرسل إلى أهل دائرته الانتخابية بخطبة واحدة على الأقل، مما ألقاه، ولا من يستطيع أن يتحمل أن يقاطع قبل أن يكون قد ضمن خطبته كل ما يمكن أن يقال من اقتراحات نافعة تمس الأربعة والعشرين[1] ولاية التى ينتظمها الاتحاد، ولا سيما الدائرة التى يمثلها. ولذلك تراه يعرض على عقول السامعين سلسلة من الحقائق الهامة الكبرى (التى يحسن تفهمها، ولا يحسن التعبير عنها) ويذكر تفاصيل تافهة يعرف حقاً كيف يقف عليها بسهولة

(١) كان هذا عدد الولايات وقت زيارة المؤلف لأمريكا.

ويعبر عنها كذلك. ومن ثم، فكثيراً ما تكون المناقشات فى هذا المجلس العظيم غامضة مضطربة، فتبدو كأنها تجر أذيالها فى ثقل وبطء بدلاً من أن تتجه نحو الهدف المنشود مباشرة. ويخيل إلى أن مثل هذه الحال ستتجلى دائماً فى المجالس العامة فى البلاد الديمقراطية.

قد تنجح الظروف السعيدة، والقوانين الرشيدة، فى أن تجتذب إلى المجلس التشريعى فى الأمة الديمقراطية رجالاً أكفاء ممن يرسلهم الأمريكيون إلى الكونجرس، ولكن ليس ثم شىء يستطيع أن يمنع الرجال المتوسطى الكفاية الذين وصلوا إلى مقاعد المجلس فعلاً، من أن يظهروا أنفسهم أمام الجمهور بكل وسيلة من الوسائل راضين مغتبطين. وهذا داء غير قابل للشفاء التام فى نظرى، فهو لم ينشأ فى «تكتيك» هذا المجلس فحسب، بل نشأ أيضاً فى نظامه وفى دستور البلاد نفسها. والظاهر أن سكان الولايات المتحدة أنفسهم ينظرون إليه على هذا الضوء ذاته؛ وتتجلى خبرتهم الطويلة بالحياة النيابية، لا فى الامتناع عن إلقاء خطب سقيمة، بل فى أن يرضوا فى شجاعة بأن يستمعوا إلى إلقائها.. فهم يستسلمون إلى هذا الأمر استسلامهم إلى شر علموا بالخبرة، أنه شر لابد منه.

كشفنا عن الجانب التافه من جوانب المناقشة السياسية التى تدور فى المجالس النيابية فى الدول الديمقراطية، وعلينا الآن أن نعرض للجانب الرائع منها.. فما حدث فى برلمان إنجلترا فى المائة والخمسين سنة الماضية لم يكن له صدى كبير خارج تلك البلاد، فالآراء والمشاعر التى عبر عنها الخطباء لا تستثير أى عطف من أى شعب من الشعوب الأخرى، حتى أقربها إلى مسرح الحرية البريطانى العظيم، ذلك، على حين أن أوربا كلها قد استثيرت بالمناقشات الأولى التى دارت فى أصغر مجالس المستعمرات الأمريكية فى عصر الثورة.

وليس مرد هذا إلى ظروف خاصة وعرضية، بل إلى أسباب هامة باقية. فلا أستطيع أن أتصور شيئاً أروع ولا أقوى من خطيب عظيم يناقش مسائل خطيرة من مسائل الدولة فى مجلس ديمقراطى.. وإذا لم يعد ثمة طبقة ترسل نواباً عنها إلى المجلس ليمثلوا مصالحها الخاصة، ويدافعوا عنها، صار الخطيب يوجه كلامه إلى الأمة جمعاء ويتكلم باسمها، مما يجعل آراءه واسعة عامة، ويزيد عبارته رصانة وقوة. ولما لم يعد للسوابق هنا أية قيمة، ولم تعد ثمة امتيازات خاصة معينة، ولا حقوق ذاتية خاصة بأفراد معينين، اضطر العقل أن يلجأ إلى الحقائق العامة المستمدة من الطبيعة البشرية لحل المسألة المعينة المعروضة على بساط البحث، فلا غرو أن كانت المناقشات السياسية التى تجرى فى أمة ديمقراطية، مهما كانت هذه الأمة صغيرة، على درجة من السعة كثيراً ما تجعلها جذابة تسترعى اهتمام الجنس البشرى كله.. فالناس كافة يهتمون بهذه المناقشات، لأن موضوعها هو الإنسان نفسه، والإنسان واحد فى كل مكان.

وعلى النقيض من هذا، فمن بين أعظم الأمم الأرستقراطية تجرى مناقشة أكثر

المسائل عمومية فى الغالب دائماً على أساس من بعض الحجج الخاصة المستمدة من الممارسة فى وقت معين أو من حقوق طبقة معينة والتى تهم هذه الطبقة وحدها دون غيرها أو تهم معظم الناس الذين يتصادف وجودهم ضمن هذه الطبقة .

فإلى هذا السبب ، وإلى عظمة الشعب الفرنسى ، وكذلك إلى ميول الشعوب التى تستمع إليه وتتبعه ، يجب أن يرجع هذا التأثير البالغ الذى قد تحدثه فى العالم المناقشات الفرنسية فى الشئون السياسية ، فكثيراً ما كان يتحدث خطباء فرنسا إلى البشر أجمعين ، حتى ولو كان كلامهم موجهاً إلى الفرنسيين وحدهم .